مشكلات الأحاديث النبوية
و بيانها

عبدالله بن علي النجدى القصيمي

المجلس العلمي السلفي
شيش محل رود لاهور باكستان

والخلاصة أن القارئ إذا عرف أمرين ـ ولا بد له من معرفتهما ـ هانت عليه مشكلة عذاب القبر ونعيمه سواء أكان روحانياً جسمانياً أم روحانياً فقط : إذا عرف العالم الروحاني ؛ واعترف به . وما قدمناه يكفيه بأن يعترف . ومن الأمور البديهية أن هذه الحركة في الكون، والنظام العجيب الذي هو دائب عليه ، لا بد أن مصدره أمراً غير مادي . وعرف أنه ليس كل موجود فلا بد أن يحس ويرى . بل الوجود أوسع دائرة من الإحساس . وبهذا يصير عذاب القبر ونعيمه من المسائل الواضحة ومن القضايا التي لا بد من الإيمان بها .

لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن رسول الله أنه قال : " لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم ، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر " الإخناز هو التغيير والفساد . و يفسر هذا الحديث بعض الناس بأن اللحم كان قبل بني إسرائيل لا يخنز ولا يفسد ، وإن ترك أزماناً، أي إن طبيعة اللحم كانت غير قابلة للفساد . ثم إن الله عاقب بني إسرائيل بذنوبهم وبطرهم حين ما كان ينزل عليهم المن والسلوى ، فتغيرت طبيعة اللحم وصارت إلى الفساد والإخناز إذا ما ترك اللحم وصارت إلى الفساد والإخناز إذا ما ترك اللحم . قالوا : والله يعاقب على المعاصي كثيراً بالعقوبات الدنيوية ، والمصائب في الأموال والطعام والشراب . وكذا قالوا : إنه لولا حواء وعصيانها وأكلها من الشجرة المحرمة لما عصيت

امرأة ، ولما غررت بزوجها . والمراد بالخيانة هنا أنها سولت لآدم أن يأكل من الشجرة لا أنها خانت في عرضها . كلا . والمعنى على هذا أن الله عاقب النساء بعصيان أمهن حواء فجرين على آثارها ، وعصين كما عصت عقوبة وجزاء .

وهذا القول بعيد من الشرع بعيد من الصواب ، لا يجوز حمل الحديث عليه ، و لا يجوز الذهاب إليه . فإن هذا مثل أن يقال : إن النار كانت في زمن بني إسرائيل لا تحرق ، وإن الماء لا يروي ، والطعام لا يشبع . ومن يقبل هذا ؟! إذاً ما معنى هذا الحديث ، وما تأويله ؟

فأقول : القول الحق ، والرأي الصواب فيه ، هو ما بعث به إلينا حضرة عالم السنة، ومحي مذهب السلف في دمشق الشام ، الرقيق العلامة محمد بهجة البيطار. وقد سألناه عن الحديث كتابة ، فأرسل إلينا الجواب كتابة .

جواب الأستاذ البيطار

قال حفظه الله " لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم . الظاهر المتبادر الذي أفهمه منه أن البركة في الإنفاق ، وأن المحق في الإمساك ، و أن بني إسرائيل كان يأتيهم رزقهم من السلوى كل يوم فيأكلونه لحماً طرياً و يوسعون منه على غيرهم . فلما شحوا به وادخروه ، عوقبوا بفساده وخبثه ونتنه ، ولعلهم كانوا أول من سن هذه السنة السيئة في الناس ، أو اشتهروا بها أكثر من غيرهم ، وكانوا قدوة سيئة لمن جاء بعدهم بحكم الوراثة والتقليد .

" فالكلام على ما يظهر لي هو في عمل بني إسرائيل في اللحم ، ولا في طبيعة اللحم من حيث هو لحم ، وأنه لولا هم لما ادخر، ولو لم يدخر لم يفسد والله أعلم .

" وأما خيانة حواء لزوجها فيما بدأت به و زينت له من الأكل من الشجرة المنهي عنها . فالخيانة اسم جنس شامل لجميع أنواعها، وتزيين حواء لآدم الأكل من هذه الشجرة الضارة هو نوع منها . ثم توسعت بنات حواء في الخيانة وارتكبن منها كل قبيح كما هي عادة البشر و طبيعة المجتمع في التفنن بكل نافع وضار على تراخي الزمن ، وتجدد الشئون ، واشتداد البواعث ، وتولد المصالح و المفاسد ، وتنوع البشر إلى غوى ورشيد ، وانقسامهم

إلى شقي وسعيد ، وابتلائهم بسوء التربية وفساد العشرة والتقليد.

" وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد "

انتهى جواب الأستاذ بيطار.

وهذا وربك هو الجواب الذي تقبله عقول الشباب المتعلم ولا يأباه السواد الأعظم المتعمم ، وهو الجواب الذي يمشي مع الثقافتين الصفراء والبيضاء .

وبيان كلام الأستاذ حفظه الله أنه قد يكون إدخار اللحم الذي يترتب عليه فساده وإخنازه مجهولاً للأمم قبل بني إسرائيل، لم يعتادوه ولم يعرفوه، كما قد تكون طرق كثيرة لإدخار اللحم وحفظه مجهولة لآن لأمم عظيمة، وإن كانت معروفة لأمم أخرى. والأمم الآخذة بآفاق الحضارة اليوم تعرف طرقاً لإدخار اللحوم على إختلافها، وإدخار سائر الأطعمة لا تعرفها الأمم البدوية أو الناشئة في الحضارة، فكانت الأمم قبل بني إسرائيل لا تعرف أن اللحوم تخزن و

تدخر، فما كانت تفعله، فما كان الفساد ولا الإخناز يتناوله. فلما جاءت بنو إسرائيل ورغس الله لهم النعم والآلاء رغسا، وصب عليهم خيراته وبركاته، وأنزل عليهم المن والسلوى، وهي أنواع من لحوم الطير الفاخرة، تأتيهم صباح مساء، لم يكن شكرهم لهذه النعم التي فضلهم بها على العالمين إلا الكفران، والإمساك، والشح، الذي لا داعي له إلا اللحازة وسوء الجبلة، بخلو وخافوا إنقطاع ما هم فيه من نعيم، ففكروا في الإدخار، فهذاهم شحهم وهلعهم إلى أن خزنوا المأكولات وخزنوا المن والسلوى فأصيب بالفساد والإخناز شأن اللحوم. ولا تنس أن القوم كانوا جاهلين ولا بد طرق الإدخار التي يبقى معها اللحم سليما من الفساد، لأن الناس لم يتسعوا إذ ذاك في فنون الإمساك وفنون المأكولات سنة النشوء والإرتقاء .

هذا مـا كان من بني إسرائيل. فجاءت الأمم بهدهم ، وأخذت مأخذهم فيما إبتدعوا و شرعوا من إمساك وإدخار، فادخر الناس اللحوم فأخنزت كما هي اليوم ، وهذا يشبه قوله عليه السلام " لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على إبن آدم الأول كفل من ذلك لأنه أول من سن القتل " وهذا الحديث شبيه بأن نقول : لولا الفرنج لما طار العراقيون والحجازيون والمصريون بالطيارات ، ولما تخاطبوا وبينهم المسافات التي تهلك فيها الأشواط والأصوات .

ولا تلازم في هذا بين الأول والثاني إلا إختراع الأول ما تمكن به الثاني أن يفعل . وهو تلازم عادي لا عقلي ، وكذلك لا تلازم بين بني إسرائيل وإخناز اللحم إلا إختراعهم ما به تمكن اللحم من أن يخنز وهو إدخاره . هذا معنى كلام الأستاذ حفظه الله في الشطر الأول من الحديث وهو " لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم " .

أما الشطر الآخر من الحديث ، وهو " لولا حواء لم تخن أنثى زوجها " فبيان قوله فيه حفظه الله أن طبيعة النساء واحدة ، واستعدادهن واحد في الخلقة والقابلية ، لا فرق بين حواء وغيرها من اللائي جئن بعدها. وقد خلقت حواء وهي أم النساء قابلة للخيانة والخطأ، فخلقت بناتها مثلها في ذلك الاستعداد والقبول، وفي تلك الخلقة والصبغة ، لا تفاوت بين أفراد النساء في ذلك . ولو أن حواء خلقت غير قابلة لذلك لما و قع منها شيء مما ذكرنا لأنها غير قابلة له كما خلقت الملائكة غير قابلة للعصيان و لكانت بناتها غير قابلات ولا مستعدات لشيء منه، فلم يقع منهن شيء، لأن الطبيعة واحدة. وعلى هذا قيل " ولولا حواء مـا خانت امرأة

الدم ، وأنه يستطيع ذلك كما تجري الروح فيه كذلك ، وهم لا يحسونها ولا يبصرونها . وإذا علموا أن الأفكار والآراء والإنفعالات كلها تجري في جسم الإنسان وهو لا يحسها ولا يبصرها، هان عليهم أن يجري الشيطان من الجسم مجرى الدم وان كان لا يحسه ولا يبصره. وإذا عرفوا أن الميكروبات القتالة تجري في جسم الإنسان وفي دمه ولحمه ، وهو لا يحسها ولا يبصرها ، بل ولا يعلم بها لو لا الميكروسكوب هان عليهم أن يؤمنوا بأن الشيطان يستطيع أن يجري في جسمه كما يجري الدم، ومن أنكر جريان الشيطان لأنه لا يحسه كان كمن أنكر الميكروبات لأنه لا يحسها ، لأنه لا ميكرسكوب عنده ، أو لأنه لا ميكروسكوب عنده ، أو لأنه لا يريد أن يرى ذلك .

فإن لم يكفيهم هذا قلنا : هذا الهواء وهو جسم مركب من عناصر مادية يجري في الأجسام ويلج في مسامها ، ونحن لا نحسه ولا نراه ، فكيف لا يقدر على مثله الشيطان ؟!

وإن لم يكفهم هذا قلنا : هذا الماء يجري في أجسامنا ، وفي دمائنا ويخرج

من مسام الأبدان ، و يرشح عرقاً ، ونحن لا نحس خروجه ولا جريانه .

فأن لم يكفهم هذا كله قلنا لهم : إن خلقة الإنسان تقضي بأن يجري الشيطان فيها وأن يستطيع ذلك وإن لم نشعر به فأن الغذاء والماء الذي نشربه ونأكله يجري في أجسامنا ولا يشعر أحد منا بذلك، وكذلك الدم يفرقه القلب على أجزاء البدن ، فيجري فيها ونحن لا نحس جريانه فما الذي يمنع أن يكون الشيطان يجري كذلك وإن لم نحسه .

فأن لم يكفهم هذا قلنا لهم : هذه الكهرباء الكامنة في الكون السارية في جميع الأجسام ونحن لا نحسها ولا نبصرها إلا في حالة مخصوصة ، وقد ذهبت القرون تلو القرون ، وهذا العالم الكهربائي لا يعلم أحد ، ولا يهتدي إليه أحد ، مع أنه جار سار في الأجسام المحيطة بنا ، بل و في أجسامنا أيضاً . ومثل الكهرباء الأثير .

إذاً لا عذر لمن أنكر أن يكون الشيطان موجوداً ، وجارياً في الأجسام ، محتجاً بأنه لا يراه ولا يبصره بعد ذلك كله . ومن ناكر وجاحد بعد ما أسلفنا فهو من الذين يعشقون المجاحدة والمناكرة . وهذا قسم من الناس لا حيلة في إلا الإعراض عنه والدعاء له .

أحاديث إنشقاق القمر

روى البخاري ومسلم ومن لا نحصيه من المفسرين والمؤرخين والجامعين لعلامات النبوّة من طرق عديدة لا نقدر على إحصائها ، عن رجال عدة من صحابة رسول الله ﷺ : أن القمر انشق في عهده عليه السلام في مكة فرقتين لما كذبه المشركون و طلبوا منه آية و قال ﷺ " اشهدوا " وقد اشتهرت هذه المعجزة فيما بين المسلمين اشتهارا كثيراً ، وإمتلأت بها الكتب ، وتعددت طرقها . حتى قال الحافظ ابن كثير ، في تفسيره وقال غيره إنها متواترة . ونقل إجماع العلماء على وقوعها لم ينقل خلافاً ، وكذلك إبن جرير والبغوي وغيرهما من مفسري السلف والأثر لم يذكروا في ذلك خلافاً .

وقد ظاهر هذه الأحاديث المتواترة القرآن الكريم ، فقال الله تعالى في أول سورة القمر : ﴿ إقتربت الساعة وإنشق القمر وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا اتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغني النذر ﴾.

وقد سميت السورة التي فيها هذه الآيات سورة القمر لعظم ذلك وشهرته . والآية صريحة في أن القمر انشق فعلاً له عليه السلام ، وأن المشركين لما رأوه كذبوا وأعرضوا وقالوا إنه سحر مستمر، وصريحة أيضاً في أن انشقاق القمر من الأمور التي فيها مزدجر للمكذبين وأنها من النذر العظيمة ، ولكن النذر لا تنفع من لم يرد الله أن يهديه حكمة منه بالغة فما تغني النذر .

و الآية تدل على وقوع هذه المعجزة في الماضي من وجوه كثيرة :

أولها ـ أن الفعل ماض وهو (وإنشق القمر) . والعرب وضعت الفعل الماضي لما وقع بحيث لا يفهم عند الإطلاق وإنقطاع القرائن غير حصوله في الزمان الغابر، ولا يريد القائل غير الماضي إلا أن يكون مدلساً ملبساً ، أو يضع قرينه في كلامه تبين ما أراد ، أو يكون هنالك قرينة . فإذا قال قائل : " سافر فلان ، و هلك فلان " لم يفهم منه غير أن ذلك قد وقع فعلاً . وإذا قال القرآن : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً ﴾ وإبراهيم وموسى وعيسى وفلانا

و فلانا من الأنبياء إلى أقوامهم فقالوا : لهم كذا وكذا لم يفهم السامعون غير أن ذلك قد وقع في الأزمان الذاهبة . وكذلك إذا قال : ﴿ إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ﴾، وقال ﴿ وأوحينا إلى أم موسى ﴾ وقال : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين ﴾ وأمثال ذلك في القرآن لم نفهم منه الاستقبال . ومثله قوله : ﴿ إقتربت الساعة وإنشق القمر ﴾ يجب أن نفهم أن ذلك قد حصل فعلاً ، كما أنه إذا قال : سوف يقع ، و كذلك إذا قال إمرؤ القيس أو غيره من الشعراء : " فعلت " وجب أن ذلك ماضياً .

وإذا أريد بالفعل الماضي الاستقبال جيء بقرينة في الكلام خارجية صريحة . فمثلاً لما قال الله تعالى : ﴿ أتى أمر الله ﴾ و كان مراده الأمر الذي لم يأت . قال : ﴿ فلا تستعجلوه﴾ ، فقوله : (فلا تستعجلوه) دليل على أنه أمر لم يحصل بعد . ونظائر ذلك في

القرآن الكلام كثير .

هذه هي طريقة الكلام التي قام عليها التفاهم والتخاطب بين الناس ، وعلم بها بعضهم مراد بعض ، وبنوا عليها أحكام دينهم ودنياهم وعلومهم وآدابهم وتواريخهم وعلى ذلك آخذوا وعاقبوا ، وأما أن يصمد الصامد إلى الفعل الماضي وفيقول : إن هذا يراد به الآتي، ويصمد إلى الفعل الآتي فيقول إن المراد به الماضي إعتباطاً وبلا دليل فهو أمر يفسد الحقائق وقانون التخاطب والتفاهم، ويجعل الكلام غير مفهوم المراد، كثير التضليل . وعلى ذلك لزم أن نفهم أن قوله (وإنشق القمر) فعل ماض وأن القمر انشق حقيقة معجزة لرسول الله ﷺ .

فأن قلت : الأمر كما تذكر ، فالفعل ماض والقمر قد انشق في زمنه عليه السلام ، إلا أني أخالفك في معنى انشقاقه فأزعم أن معنى انشقاقه هو وضوح الأمر وبينونته ، وهو كناية عن ظهور صدق رسول الله ﷺ وظهور رسالته .

قلت : من الباطل ضرورة من لغة العرب التي يجب تنزيل القرآن عليها أن يقال (إنشق القمر) على أن يكون المعنى وضح الأمر و بان . وصعود هؤلاء إلى القمر أسهل عليهم و أقرب إليهم من أن يدلوا بكلمة واحدة من كلام العرب تعبر بانشقاق القمر عن وضوح الأمر ، ولو قال قائل : إنشق القمر ، وكان يريد بقوله وضوح أمر يعنيه ، أو

وضوح الدين لكان ملغزاً معمياً بل مدلساً ملبساً . وليس بنافع هذا القائل المحسّن لهذا التفسير أن يكون بعض الناس قاله أو ذهب إليه . فكم من أقوال باطلة ضرورة باعتراف هذا المحسن في اللسان والدين والمعقولات. وأحسب أن هذا التفسير من تفاسير الباطنية، فأنهم يفسرون القرآن تفسيراً باطلاً بداهة، ويزعمون أن اللغة تناصره. ومن تفاسيرهم أن الصلوات الخمس عبارة عن أسماء أشخاص ، وكذلك يفعلون بالحج والزكاة والصيام وسائر أسماء الدين، ويدعون أنهم يخالفوا اللغة ولا الدين . فهل ينفع مفسر إنشقاق القمر بوضوح الأمر أن يقوله قائل ، أو يكتبه كاتب ، أو يطبعه طابع ؟! .

-20-

ثم لا أظن بلاغة القرآن تسمح أن تقول (إقتربت الساعة) و وضح الأمر (وإن يروا آية يعرضوا) فأي تناسب بين هذه الأجزاء ، وأيِّ إقتراب بين إقتراب الساعة ووضوح الأمر .

ثانيها . لئن جاز أن تؤول هذه المعجزة ، وهي انشقاق القمر ليجوزن أن تؤول معجزات الأنبياء الواردة في القرآن . وجاز أن يصل لتأويل إلى ما ذكره القرآن من أن عيسى كان يحي الموتى ويبرئ الأبرص والأكمه ، ويكلم الناس في المهد . وأن يصل التأويل إلى عصى موسى ويده ، وإلى ناقة صالح ، وإلى إلقاء إبراهيم في النار ونجاته منها ، وإلى إلقاء يونس في بطن الحوت ، وإلى معجزات داوود وسليمان الكونية العجيبة . فإذا لم يكن من الصعب تأويل إنشقاق القمر لم يكن منه تأويل معجزات هؤلاء الأنبياء . وقد أولها قوم ورد عليهم هذا الذي أول إنشقاق القمر، وأوسعهم ملاماً وتضليلاً. فهل يصعب أن يقال : إن إحياء عيسى للموتى عبارة عن هدايته الضالين الكافرين ، وإنه كان يبرئ الأبرص والأكمه بمهارته في الطب ، أو يكون المراد بالأبرص والأكمه فاسدوا الأخلاق ، وإبراؤهم عبارة عن تقويمهم . وهكذا إلى أن نأتي على بقية المعجزات .

إن من جوز تأويل انشقاق القمر أو أوله فعلا لزمه ذلك لا محالة . ونحن نعلم مع مؤول انشقاق القمر أن هذا فاسد بالإجماع والضرورة .

ولا أظن هذا المخالف يخالف أن قوله (وإنشق القمر) مع الأحاديث المروية فيه

أدل على ما نقول من قوله في عيسى إنه كان يحي الموتى ، ويكلم الناس في المهد على ظاهرها .

ثالثها ـ كل الآيات التي بعد الآية المذكورة تدل دلالة صريحة على أن المراد أن القمر قد انشق حقيقة معجزة له علية السلام وهاك الآيات : ﴿ إقتربت الساعة وإنشق القمر، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ، ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغني النذر ﴾ إلى آخر السورة .

-21-

أفليست الآيات كالتصريح بما نقول ؟! وهل يكون سياقها منتظماً إلا إذا كان المعنى كذلك ؟!. أوليس قوله (وإن يروا آية يعرضوا و يقولوا سحر مستمر) وقوله (ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغني النذر) برهانا قاهراً وتصريحاً واضحاً؟!. وإلا فأي تجامع في أن يقول : اقتربت الساعة و سينشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا إلى آخره ؟! أو يقول اقتربت الساعة ووضح الأمر إلى آخره ؟!. ألا يكون هذا الكلام مفككا ضعيف التأليف ؟! .

وقد اعترض هنا بعض المنكرين وقال: لو كان المعنى ما تذهبوا إليه لقال: فأعرضوا إلى آخره. أي لجاء به فعلا ماضياً . وهذا الإعتراض ليس بالقوي، لأن المعنى في الآية أنهم كلما رأوا آية أعرضوا وكذبوا فالتكذيب والإعراض دأبهم، وهذا ما يدل عليه الفعل المضارع فانه يدل على الاستمرار والتجدد ، كما نقول فلان يرشد الناس . أما الفعل الماضي بأن يقول: فأعرضوا وقالوا فلا يدل على هذا المعنى ظاهره والمعنى من مقاصد الآية. ومثل هذا الاستعمال شائع في القرآن وفي كل العرب وغير العرب ومثله قوله تعالى: ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ .

فالآية التي بعد (إنشق القمر) صريحة فيما نقول. وليس بجائز أن نذهب بالكلام عن سبيله المألوف المعروف. و فهم الكلام يلزم أن يراعى فيه أول السياق وآخره . ولا يجوز بحال أن يعرض عما قبله وما بعده . ولا يفهم غرض القائل من قوله إلا بما بعده وما قبله غالباً فيجب الاعتماد على ذلك.

رابعها - إن مفسري القرآن قاطبة فسروا الآية كما ذكرنا إلا ما يؤثر من روايات شاذة ، و لكل شيء شذوذ. وما صح عن أحد ممن يؤتم به في الدين أنه فسر الآية خلاف ذلك. وقد ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره الإجماع على ذلك، ولم يذكر ابن جرير ولا البغوي ولا غيرهما من المتقدمين الأثريين خلافاً فيه. ولينظر القارئ في هذه التفاسير . أما مفسرو المتكلمين فيوجد في تفاسيرهم كل شيء، و يوجد فيها الإختلاف في كل شيء ، حتى في آيات أصول الدين البينة القطعية، وينقلون فيها الروايات التي ليس لها أصول. ولا

نجرأ - كما لا نظن هؤلاء المخالفين يجرؤون - على أن نخالف السلف قاطبة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم في تفسير القرآن بأشياء وقعت أمامهم ورأوها أو رآها آباؤهم .

خامسها - إن قوله (وإنشق القمر) معطوف على (إقتربت الساعة) . والأول لفظه ماض ، ومعناه كذلك يقيناً ، كما قال في السورة الأخرى (إقترب للناس حسابهم) . و قال عليه السلام في الحديث الصحيح المشهور " بعثت أنا و الساعة كهاتين ".

إذاً يجب أن يكون المعطوف مثله ماضياً لفظاً ومعنى . ولا نحسب أنه يجوز في كلام العرب أبداً أن يقال : قام فلان ، وقعد فلان . ويكون الأول ماضياً لفظاً ومعنى، والآخر ماضياً لفظاً مضارعاً معنى. فما أعسر أن يوجد ذلك في الكلام. وكذا لو قيل: ذهب فلان إلى الحجاز وذهب فلان إلى اليمن لما جاز أن يكون الأول ماضياً دون الثاني. وهذا أمر بين مشهور . فكذلك فعلا الآية ﴿ إقتربت الساعة وإنشق القمر ﴾ يجب أن يكونا ماضيين معناهما ولفظهما.

ثم قد جاء أن حذيفة بن اليمان الصحابي المشهور كان يقرأ (إقتربت الساعة وقد إنشق القمر) وهذا لا يمكن أن يحمل على الاستقبال لأن (قد) تحقق وقوعه ، وتبعده عن الإستقبال . وهذا معنى قول النحويين: (قد) حرف تحقيق .

هذه الأمور تدل دلالة يقينية على أن القمر قد انشق معجزة له عليه السلام من جملة معجزاته المادية الكونية الكثيرة. وليعلم المخالفون أن الشكوك والشبهات لا حد لها ولا نهاية تقف عندها ، فمن أعطاهم مقوده رمته في لجج من الضلالات عميقة. فلينج المسلم

بنفسه منها وليستعذ بالله من الإرتطام فيها.

هذا وقد أنكر قوم من المتفلسفين الملحدين، ومن مشى أعقابهم ـ تقليداً ـ انشقاق القمر، وكذب المسلمون منهم الأخبار الصحيحة، وصرفوا الآية عن وجهها وحرفوها عن موضعها، واعتلوا بعدة شبه نذكرها هنا و نذكر جوابها اختصاراً:

القدح في الروايات :-

قدحوا في الأحاديث وقالوا:

أولاً - إنها مختلفة متضاربة فيجب تساقطها . فبعضها يقول انشق القمر ونحن في مكة . وبعضها يقول : ونحن في منى . وبعضها يطلق الإنشقاق ولا يقيد مكانه ، وبعضها يقول : فرأيناه منشقاًً فوق جبل كذا . وبعضها يقول : فصار ذلك الجبل بين شقتي القمر .

ثانيا – إن بعض الذين رووا الحديث لم يشاهدو ا الحادث ، إما لصغر أسنانهم، أو لأنهم ليسوا موجودين مكة وذلك كرواية أنس بن مالك وعبدالله بن عباس . فأحاديثهم من قسم مرسل الصحابي، والإرسال ـ وإن كان إرسال صحابي ـ يهون شأن الحديث. لأننا لا ندري عمن رواه ذلك الصحابي، ولعل أخذه عن راو ضعيف.

ثالثاً – إن انشقاق القمر حادث عجيب نادر تتوثب الدواعي إلى نقله متواتراً قطعياً، وقد جاء غير متواتر. قالوا: ومن علامات وضع الخبر أن يكون في أمر غريب كبير فلا يكون متواترا. فلو كان القمر إنشق حقيقة ، ورآه الناس لجاء عن الصحابة الكبار كالخلفاء وغيرهم متواتراً ، ولاحتجوا به في مواطن كثيرة لإقامة الدلائل على المخالفين .

هذا حاصل الشبهة الأولى

وجوابها : إما الأول وهو اختلاف الروايات فهو مما لا ينقضي منه العجب . فهل هنالك تخالف أو شبه تخالف بين أن يقولوا: انشق و نحن في مكة ويقولوا: انشق ونحن في منى ؟! فان قولهم " ونحن في مكة " يريدون أن ذلك وقع قبل الهجرة إلى المدينة، وقد جاء مصرحاً به في بعض الروايات، ولفظه " قبل أن نصير إلى المدينة " ولا شك أن من

كان في منى يقول له من هو في الخارج انه في مكة . وفي القاموس " ومنى كأي قرية في مكة " . و أما الرواية التي ذكرت الانشقاق مهملة ، ولم تذكر مكاناً فليس فيها ما يسمى مخالفة للروايات التي ذكرت أنهم كانوا في منى أو في مكة البتة . وهل إذا قال قائل: رأيت رسول الله يعمل كذا، وقال آخر : رأيته يعمل ذلك العمل في مكان كذا يعد هذا

تخالفاً موجباً تساقط الروايتين ؟! اللهم لا. وإذا قال قائل: رأيت فلاناً يعمل عملاً. وقال آخر: رأيته يعمل ذلك العمل في مكان ذكره يعد تخالفاً ؟! اللهم لا. فكذا قولهم في بعض الروايات إنه " انشق فوق الجبل " والقول الآخر إنه " رؤى الجبل بين شقتي القمر " ليس فيه تخالفاً مطلقاً فلا ريب أن هذه الشبهة من الشبه الدواحض لدى البرهان.

ثم إن الإختلاف في صفة الأمر ليس من الإختلاف الذي يوجب أن يقال: تخالفتا فتساقطتا . فان الاختلاف في صفات . فإن الإختلاف في صفات الشيء ليس اختلافاً في الشيء ضرورة. ولا يوجد أمر نقلي عظيم إلا و يوجد إختلاف في كثير من صفاته وأوصافه . وقد نجد اختلافاً يعد من الكثير في صلاة رسول الله ﷺ ، وحجه ، وصيامه ، وجهاده ، وولادته ، وصورته ، وحياته ؛ فهل نقول في ذلك : تخالفتا فتساقطتا ، فنقول إنه لم تكن له صلاة ولا صيام إلى آخره . وكذلك نجد إختلافاً في أحوال الجنة والنار ، والسماء و الأرض، وفي الحساب والعقاب ، وفي الأنبياء ، والملائكة ، والجن . فهل يقال في هذه الأخبار إنها متساقطة كلها، فينبني عليه أن تكون أن تكون هذه الأشياء غير موجودة .

وليعلم هؤلاء أن الروايات التي يقال فيها: " تخالفتا فتساقطتا " هي الروايات المختلفة في أصل المعنى . فلو جاء خبر عن رسول الله ﷺ يقول : لم ينشق القمر ، ولن ينشق، وجاءت رواية أخرى عنه تقول : إنه انشق، أو سوف ينشق، لأمكن أن يعد بعض الناس هذا النوع من التخالف المتساقط .

وأما القدح الثاني وهو أن بعض الروايات من مرسلات الصحابة فنقول :

أولاً - هذا لا يقدح في الآية كما لا يقدح في الأحاديث المسندة. وقد صح عن ابن مسعود في الصحيحين وغيرهما مسنداً أنه رأى ذلك بنفسه . وكذلك صح في صحيح مسلم

عن ابن عمر ، وجاء عن غيرهما مسنداً في غير البخاري ومسلم من طرق عدة. فهبوا أن الأخبار الأخرى المرسلة ليست صحيحة فالآية والأحاديث المسندة كافية في إثبات المسألة . وأيضاً إن الرأي الصحيح أن مرسلات الصحابة رضي الله عنهم حجة لأن

المعقول المتبادر

أنهم يحدثون عن الصحابة الذين شاهدوا ذلك أو سمعوه من رسول الله ﷺ، وأنهم لا يحدثون إلا عن أهل العدالة المعروفين لهم بالدين والأمانة . وهذا لازم إذا كان الخبر يسند إلى رسول الله ﷺ، ثم أليس مما ينضاف إلى المحال أن يقال إن هؤلاء الصحابة الذين أرسلوا هذه القصة إنما أخذوها من كعب الأخبار أو نظيره ولا يقال: إنهم أخذوها عن الصحابة الذين كانوا ملازمين لرسول الله ﷺ من كبار المهاجرين والذين كانوا في مكة يوم وقعت الواقعة ؟!و كيف يمكن أن يكونوا قد أخذوها عن كعب الأحبار ؟! ووهب بن منبه وغيرهما من مسلمة أهل الكتاب إنما يروون عنهم الإسرائيليات والروايات عن أنبيائهم السالفين، لا أحوال رسول الله ﷺ. هذا هو الغالب المعقول. وهل يمكن أن يكون المهاجرون والأنصار وفضلاء الصحابة يتعلمون سيرة رسول الله ومعجزاته من مسلمي أهل الكتاب التابعين الذين لم يروا الرسول ؟! أوليس من المحال الذي يربأ العاقل بنفسه أن يصدقه أن رسول الله ﷺ تأبيداً لدعوته بين كبار الأنصار و المهاجرين، وهو تحديث كاذب، وحادث لم يكن، فلا يكذبوه في رواية لا صحيحة ولا ضعيفة ؟! ولو فرضنا أن كعباً هو الذي حدث أنساً وعبدالله بن عباس عن هذا الحادث العظيم، ثم لم نجد من رد عليه قوله ولا كذبه لوجب أن نوقن أن الحديث صحيح، ولا يمكن أن يكون كذباً.

ويمكننا أن نقرب ذلك فنقول: لنفرض أن جريدة كبرى من جرائد مصر " كالأهرام " كتبت أن الشمس إنشقت شقتين ضحى ، ووقعت إحدى شقتيها على الأرض ، ورآها الناس عياناً ، فهل يمكن أن تقر الأهرام على هذه الأكذوبة فلا يوجد بين الصحف والكتاب من يكذبها ؟! لا شك أنه لا بد من تكذيبها إلا أن تكون صادقة. فكذلك لما أن حدث كعب الأحبار وغيره من التابعين عن هذا الحادث الهائل ، ولم نر من كذبة من أولئك العلماء الذين هم

أحرص على تكذيب الكذب من غيرهم ، وجب أن تكون تلك الرواية صحيحة بداهة. وهذا من طرائف هذا البحث ، بل هو من أعظم البراهين على وقوعه .

وأما القدح الثالث وهو أنه حادث عظيم فيجب أن يروى متواتراً لو كان صحيحاً ،

وفقدان تواتره يدل على إختلاقه. فنقول عليه: هذا يقضي بتكذيب جميع الخوارق التي وقعت لرسول الله ﷺ ولغيره من الصحابة والأتباع، لأنه لم يروا منه شيء متواتراً، مع أنها أشياء تتحفز الدواعي على روايتها.

فصح أن رسول الله كان يخطب على جذع نخلة فلما اتخذ منبره وترك الجذع طفق الجذع يحن حنيناً كالطفل حتى نزل رسول الله وضمه إليه وسكته. وصح أن الماء نبع من بين أصابعه. وصح أنه دعا شجرة فجاءته ثم أمرها بالرجوع فرجعت لما طلب منه بعض المشركين دليلاً على نبوته. وصح أنه كان يزيد الطعام والشراب على يديه حتى إنهم كانوا يأكلون منه فيزيد. وصح عنه أن بعض ذوي العاهات كالعميان يجيئونه فيدعو الله لهم فيبرؤون. وصح أنه صعد على جبل أحد ومعه بعض الصحابة فاهتز الجبل فقال " أثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان ". وهذه أخبار كلها صحيحة عند أهل العلم لا خلاف بينهم في صحتها.

وجاء أن عمر بن الخطاب نادى ـ وهو يخطب المسلمين فوق منبر المدينة ـ قائد جيوشه وهو في بلاد فارس قال: يا سارية: الجبل ـ يا سارية الجبل ـ فسمعه القائد فانحاز بالجيش إلى الجبل. وجاء أن خالد بن الوليد شرب السم وسلم منه، وأن بعضهم نزل عليه دلو من السماء، وبعضهم كانت تضيء له عصاه إذا قام من عند رسول الله في الظلام.

ونظائر هذا عديدة. وليس منها شيء متواتراً التواتر الذي يعنون. فهل تكون كلها كذباً ؟ هذا القدح يقتضي تكذيبها، وهذا لا يقوله من يعرف ما يقول.

وأيضاً التواتر إما أن يراد به شهرة المتواتر وذيوعه وكثرة من رووه وعرفوه، وإما أن يراد به روايته بالأسانيد الصحيحة على شريطة المحدثين متواتراً بنفس الأسانيد الصحيحة. إن أريد الأول فلماذا لا يكون حديث الانشقاق متواتراً ؟ فقد اشتهر أي اشتهار، وروي فيما لا يعد من الكتب القديمة والحديثة، وعرفه الخاصة والعامة، وما برح المسلمون

يستدلون به على المخالفين، ويضعونه في حساب المعجزات الإسلامية. وكم من الأمور ما يؤمن هؤلاء بأنها متواترة مع أنها لم تشتهر اشتهار انشقاق القمر. وإن أريد

الثاني لم يكن صحيحا، فإن المتواتر لا يشترط فيه أن يكون تواتره بالأسانيد الصحيحة ، بل يكون التواتر برواية الكفار والفساق . وأكبر الأمور التاريخية والدينية ليست متواترة على هذا التعريف .

وأيضاً الانشقاق جاء في القرآن ، والقرآن متواتر ، وليس يلازم أن يكون التواتر بروايات الحديث، وإنما المراد التواتر فقط، وأما التنصل من ذلك بتأويل الآية فليس بدافع وجود التواتر لأن المتواترات جميعاً يمكن تسليط التأويل عليها . وقد أول أقوام من الملحدين ما في القرآن من شئون البعث، والحساب، والعقاب، والجنة، والنار، وعذاب القبر، وعالم الأرواح، مع أنها متواترة. على أن التأويل يدرك الروايات كما يدرك الآية فلو جاء الانشقاق في الحديث متواتراً كما اقترح هؤلاء لأولوه كما فعلوا في الآية .

<u>مخالفة ذلك للقرآن :-</u>

وقالوا : إن انشقاق القمر يخالف القرآن و الحديث . فأن المشركين كانوا يطالبون الرسول بالآيات الكونية فلا يجيبهم الله إلى ما طلبوا واقترحوا. وهذا بيم في القرآن، قال في سورة يونس (و يقولون لولا أنزل عليه آية من ربه قل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين) و مثلها في سورة الرعد. و في سورة طه (و قالوا لولا يأتينا بآية من ربه . أولم تأتيهم بينة ما في الصحف الأولى) و في سورة العنكبوت (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله و إنما أنا نذير مبين. أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة و ذكرى لقوم يؤمنون) و في سورة الأنعام (و قالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية و لكن أكثرهم لا يعلمون) و في سورة الإسراء (و ما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل الآيات إلا تخويفا) . وفي البخاري و مسلم أنه قال عليه السلام " ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته

وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة "

قالوا : فهذه النصوص تدل على أن الله لم ينزل على المشركين ما طلبوه من الآيات

المادية فكيف نتركها لهذه الروايات ؟!.

ونحن نقول : ليس في شيء من الآيات المذكورة ولا الحديث أن الله تعالى لم ينزل على رسوله ولا آية واحدة، ولا أنه لا يمكن أن ينزل، والذي تدل عليه الآيات والإستقراء أن المشركين لم يعطوا من ذلك كل ما سألوه ، وقد ذكر القرآن مطالب المشركين وعنادهم و تعسفهم فيه ، ففي سورة الإسراء (و قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا) وفي سورة الفرقان (وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقي عليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها)

فالله لم يعطهم أمثال هذه المطالب ، والآيات المذكورة دالة عليه، وليس فيها البتة الدلالة على أن الله لم ينزل عليه آية كونية مطلقاً. وقد حكى القرآن عن الرسل مع أقوامهم مثل هذا مع أنه قد نزل عليهم آيات كونية. ففي سورة إبراهيم حاكياً عن المشركين (قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ، قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) . والسلطان هنا الآية . و في سورة هود (وقالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين) إلى آخر الآيات. فهل دلت هذه على أن الله لم ينزل على هؤلاء آيات ؟!.

ويقال أيضاً إن في الآيات المذكورة ما يدل على عكس ما ظن المنازعون فان قوله (فانتظروا إني معكم من المنتظرين) وقوله { قل إن الله قادر على أن ينزل آية لكن أكثرهم لا يعلمون } وقوله (وما نرسل الآيات إلا تخويفا) تشير إلى نزول الآيات إشارة تكاد تكون صريحة. فقوله (انتظروا) بعد طلبهم ذلك كالتصريح بأن الإنتظار للآيات وقوله (

قل إن الله قادر على أن ينزل آية) كالتصريح أيضاً بأن ذلك سوف يكون، وقوله (وما

نرسل بالآيات إلا تخويفا) كالتصريح أيضاً لأن (نرسل) فعل مضارع ولا بد من تحققه في المستقبل فإن لم يكن ذلك على خاتم الأنبياء فعلى من يتحقق. وأيضاً إذا كان إرسال الآيات تخويفاً من الله لعباده فهل يترك قريشاً بلا تخويف وهل يبخل عليهم بذلك ؟ فالآيات تنتج خلاف ما استنتج المخالفون. وقوله (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) لا يدل على أن الله امتنع من أن يرسل آيات مطلقاً ، وإنما معنى ذلك إن الكفار كانوا يطالبون النبي عليه الصلاة والسلام بمثل الآيات التي جاء بها الأنبياء قبله ، كعصا موسى ويده ، وناقة صالح ، وكإحياء عيسى للموتى ، ويقولون إذا جئتنا بذلك آمنا لك وصدقنا فأبى الله عليهم ذلك وقال ما منعنا أن نرسل إليهم الآيات التي طلبوا إلا أنها لن تجدي فيهم ولن يؤمنوا بها كما لم يؤمن بها من قبلهم من الأمم وهم مثلهم عناداً وضلالا . فالذي أخبر القرآن أن الله امتنع من أن يرسله هو ما كان مثل آيات الأنبياء التي تكون هي الآية الكبرى لأنبيائه لا مطلق الآيات . ودليلنا على ذلك أن الله قد أرسل آيات كثيرة إلى قريش على نبيه عليه الصلاة والسلام بالإجماع ، وليس بممكن أن يأتي رسول بلا آيات تدل على صدق دعواه .

وأيضاً إن الآية تقول (وما منعنا أن نرسل بالآيات) فلو فرضنا أنها دليل على أن الله لم يرسل آيات لم تدل على أن الله لم يرسل آية واحدة كإنشقاق القمر .

وأيضاً مما لا يصار إليه أن يقال : إن الآيات السالفة تدل على أن الله لم يرسل على نبيه محمد ﷺ آية ، فإن القرآن آية الآيات . وقد تواترت الروايات الصحيحة أن الله تعالى قد أعطى رسوله من الآيات المادية الشيء الكثير غير القرآن حتى قدرها بعض العلماء كما في فتح الباري بألف ومائتين وقدرها آخر بثلاثة آلاف. وقد عقد الإمام البخاري في صحيحه باباً سماه علامات النبوة ذكر فيه طرفاً من معجزاته المادية ذكر فيه بضعاً وخمسين حديثاً، وروى في هذا الباب عن علقمة عن عبدالله بن مسعود قال : { كنا نعد

الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفا. كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقل الماء فقال : أطلبوا

فضلة من ماء فجاؤا بإناء فيه ماء قليل فأدخل يده في الإناء ثم قال : حي على الطهور

المبارك والبركة من الله. ولقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل } وقد ذكرت هذا الحديث دون غيره لأنه سمى ذلك آيات. وقد ألف أئمة كتباً خاصة سموها علامات النبوة ذكروا فيها أموراً كثيرة من الدلائل المادية على رسالته. و من أنكر جميع ذلك غير القرآن فهو في حاجة إلى أن يقال له تعلم.

فهل هذه الآيات تدل على كذب هذه الأخبار كلها ؟! هذا خلاف الإجماع، وخلاف الضرورة، فإننا لا نشك أن ذلك لا يمكن أن يكون كذباً كله... - وإن كان يجوز على فرد ذلك - وإذا لم تدل الآيات على كذب ذلك لم تدل على نفي انشقاق القمر لأنه واحد منهما.

ويمكن تصوير هذا بعبارة أخرى فنقول: الآيات التي ذكروها إما أن تكون دليلاً على نفي الآيات المادية مطلقاً أو تكون دليلاً على نفي نوع خاص منها. الأول لا يمكن أن يصار إليه لأنه عليه السلام قد أوتي آيات مادية كثيرة بالإجماع و التواتر، فنبع الماء من بين أصابعه وسبح له الحصى والطعام حتى سمعوه، وحن الجذع الذي كان يخطب عليه لما أن تركه، وزاد الطعام والشراب، على يديه. وذلك كثير. وإن أريد الثاني فمن أين علم المخالفون أن انشقاق القمر من القسم الذي منع إنزاله ؟! هم يحتاجون إلى دليل.

وأيضاً هذه الآيات ليست أبين في النفي من آية الانشقاق وأحاديث الإثبات. فإن آية الانشقاق و أحاديثه نص في معناه. وأما الآيات التي زعموها نافية فلا يقدر المخالف أن يدعي أنها نص في نفي انشقاق القمر. وحينئذٍ ليس من العدالة أن يترك البيِّن الواضح للخفي المتكلف، ومن فعل ذلك فقد فاته الإنصاف والإتزان الفكري.

والحديث وهو قوله " ما من نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً " معناه أن سائر الأنبياء كان أكبر معجزاتهم التي يعتمدون عليها في التحدي والإعجاز مادياً، وإن كانت لهم معجزات أخرى علمية - وهذا أمر لا ريب فيه - وأن أكبر معجزات محمد عليه السلام التي يعتمد عليها في التحدي والإعجاز علمية وهي القرآن، وإن كانت له معجزات أخرى مادية ومعنوية أيضاً.

هذا معنى الحديث الذي لا يصح العدول عنه.

-31-

مخالفة ذلك لسنة الله :-

قالوا: إن سنة الله التي لا تبديل لها أن يهلك المكذبين بلا إمهال بعد أن يرسل الآيات المادية. فإذا ما أنزل على أمة من الأمم آية مادية من الآيات معجزة لرسول من الرسل فلم يؤمنوا وأصروا على كفرانهم وضلالهم أهلكهم بلا إمهال، كما أهلك قوم نوح وصالح وموسى وشعيب ولوط وغيرهم. فلو كان القمر انشق حقيقة معجزة له ﷺ لوجب أن يهلك قريشاً لأنهم لم يؤمنوا بعد ذلك بل كذبوا وأعرضوا كما قال في السورة (و إن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم) إلى آخر الآيات، وهم لم يهلكوا، فلا جرم أن تكون مسألة الانشقاق أسطورة من الأساطير، هذا تحبير هذه الشبهة، وهي غلط لا حيلة فيه وإن حسبها أصحابها معجزة قاهرة. وبيان ذلك أن الله لم يهلك المكذبين الكافرين بمجرد أن كذبوا بعد الآيات سواء أكانت باقتراح أم بغير اقتراح، وإنما أهلك تلك الأمم بعد أن أسرفوا في الفساد وتمادوا في الكفر حتى قنط أنبياؤهم من إيمانهم. فنوح عليه السلام لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهم له مكذبون كافرون، بعد أن أرسل الله لهم الآيات بأعوام، ولم يهلكهم في هذه المدة المديدة، بل لم يهلكهم إلا بعد أن أيس نوح من إيمانهم و إيمان ذرياتهم، فدعا الله عليهم فأهلكهم كما هو مذكور في القرآن. و كذلك فرعون و قومه لم يغرقوا بمجرد أن كذبوا موسى عليه السلام بعد أن جاءهم بالآيات التي اقترحوها، وإنما أغرقوا بعد أن هرب موسى بقومه، فأتبعوهم لأخذهم وإبادتهم، فأخذهم الله ذلك الأخذ العنيف، و نجى رسوله و قومه . وما كان إغراقهم بمجرد التكذيب، وإلا لما تركوا إلى ذلك اليوم. ومثل هؤلاء قوم صالح، لم يهلكوا بعد أن جاءهم صالح بالآية الكبرى - وهي ناقة الله - وكذبوا، بل أهلكوا بعد أن عقروها. وما كان مطلق التكذيب موجباً ذلك. ومثل هؤلاء قوم لوط، لم يأخذهم الله ذلك الأخذ

بالتكذيب فقط، بل بأن أرادوا أن يعملوا تلك الفاحشة الشنعاء بأضياف لوط، وهم ملائكة الله.

وهكذا شأن من أخذه الله. فليس من سنة الله أن يهلك الأقوام لمجرد تكذيب الآيات

-32-

مقترحة وغير مقترحة. فإذا انشق القمر لرسول الله ﷺ و لم يؤمن قومه لم يوجب ذلك أن يهلكوا فوراً. وليس ذلك من سنة الله كما أريناك. فهذه الشبهة غلط يجب أن يفطن له الذين تعلقوا بها وحسبوها شيئاً وما هي إلا خيال زائل.

وهل يمكن أن يقال : إن من حكمة الله وسنته أن يهلك قريشاً لما كفروا بعد أن انشق القمر والله يعلم أنهم سوف يؤمنون قبل موت رسوله ، وسوف يفتح بهم البلاد والقلوب، وسوف يكونون من حزبه وحزب رسوله المفلحين، وسوف يخلق الله من ذريتهم أولئك العلماء والأبطال والعباد الذين سطر الدهر تاريخهم من نور وفضائل ؟! . كلا فليس إهلاك هؤلاء من سنة الله ولا حكمته وإنما سنته أن يهلك أمثال قوم نوح الذين لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهم لا يزدادون إلا عناداً و كفراً، إلا فاجراً كفاراً. هذه سنة الله وحكمته.

ثم قول القائل: من سنة الله ألا يفعل إلا كذا، ولا يمكن أن يترك كذا، ويجب أن يهلك كذا كلام ملآن بالجرأة، وقول لا حد له ولا ضابط به يعرف. فمن أين علم هؤلاء أن الله لابد أن يهلك كل من كذب بعد أن تظهر الآيات ؟!. لا بد من أمر يعرف به. ولو فرضنا أن الله أهلك الأمم الخالية بمجرد التكذيب. بعد أن أتت الآيات، لم نعلم من ذلك إن الله لا بد أن يهلك كل من كذب. أو ليس هؤلاء يتزعمون أن آيات جميع الأنبياء الأولين كانت مادية ؟!. فهل يقولون إن سنة الله التي لا تبديل لها أن تكون كل آيات الأنبياء كذلك ؟!. يكذبه أن معجزة محمد عليه الصلاة و السلام علمية وهي القرآن. أو لبسوا يدعون أن الله قد أباد الأمم لما كذبت أنبياءها، بعد ما جاءتهم الآيات ؟!. فهل كانت سنة الله إبادة المكذبين بعد الآيات ؟!. فقد كذبت قريش رسولهم بعد أن جاءهم بآية الآيات وهي القرآن، فلماذا لم يبيدهم ؟! . أما التفريق بين الآيات المادية والعلمية فلا دخل له في ذلك، لأنه إذا استحق المكذب بالآيات المادية الإهلاك، كان المكذب بالآيات العلمية أحق به ، لأن الآيات العلمية كالقرآن أدل على صدق صاحبها من الآيات المادية لأن الأخيرة قد تتحمل التأويل و التشكيك. وهذا المعنى يسلم به المخالف. وما كان إستحقاق الماضين الإهلاك لأن

آياتهم كانت من نوع كذا، وإنما كانوا جديرين بذلك لأنهم كذبوا رسلهم، مع أنه ظهر ما يدل على صدقهم، ولأنهم تمادوا في الكفر والمنكرات. فليراع المنازعون هذا الكلام جيداً.

مخالفة ذلك لعلم الفلك :-

قال فريق من المتفلسفين الملحدين ومن قلدهم : إن الأجرام العلوية لا يطرأ عليها خرق ولا انشقاق، ولو وقع شيء من ذلك لفسد نظام الجاذبية فتناثر العالم، فلا يمكن أن يكون القمر إنشق لذلك.

ونحن نقول : هذه شبهة من يجحد الخالق القادر المختار، ومن يجحد جميع الخوارق من المعجزات والكرامات، ومن ينكر قيام الساعة وخراب العالم. لأن ذلك كله خلاف ناموس الطبيعة ـ كما يدعى ـ وهذا القسم من الناس قليل لا يؤبه له، وهو صائر إلى الإنقراض و الزوال، وليس له إلا أن يقال له تعلم. فإن علوم الفلك والطبيعة العصرية الأوربية تنادي بغلط هذه الشبهة، فهي لا ترى مانعاً من خرق الأفلاك بل وفسادها بل يقرر أولو هذه العلوم ما هو أثبت من ذلك في الغرابة. فهم يقولون إن الأرض قطعة نارية إنفصلت من الشمس.
وقد يستدل المسلمون منهم على ذلك بقوله تعالى (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما) . ويفسرون الآية بأنهما كانتا شيئاً واحداً ، وهذا معنى قوله : (رتقاً) ، ثم انشقت الأرض من الشمس ، وهذا معنى قوله : (ففتقناهما) ويقولون : إن القمر كان جزءاً من الأرض إنفصل منها. وقد يستدل المسلمون منهم بقوله تعالى ﴿ أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ أي بانفصال القمر منها ـ كما يقولون ـ فإذا كان حصل مثل هذا، ولم يحصل فساد الجاذبية، ولا تناثر للعالم، فلن يحصل ذلك بانشقاق القمر. وهذا بين. فالشبهة باطلة في الأديان كلها، وفي علوم الفلسفة العصرية.

خفاء ذلك على أهل الأقطار **:-**

قالوا : أن انشقاق القمر من أعظم الأحداث الكونية التي تتحفز الدواعي إلى نقلها

وتدوينها وروايتها، فلو كان ذلك وقع فعلا لذكره أهل الفلك و التنجيم، ولاشتهر في سائر الأقطار أيما اشتهار، وهم لم يذكروه، فخفاؤه عليهم يدل على انه لم يقع.

والجواب أن يقال : أن القمر لا يطلع على أهل الأرض كلهم في زمان واحد، بل يطلع على فريق منهم و يخفى عن آخرين، فلا يمكن أن تراه أهل الأرض في زمن واحد جميعا، فإذا انشق لم يلزم أن يراه كل أحد، فلا يلزم ما ذكروه إذاً.

وأيضاً إن ذلك وقع ليلاً، حينما نام أكثر الناس واستكنوا في بيوتهم، وقل الخارجون الناظرون إلى السماء. وقع في هذه الحالة لحظة قليلة، في مثلها يقل الناظر الفاطن له.

وأيضاً يجوز أن يكونوا رأوه، وفطن له خلق كثير منهم، ولكن خونوا عيونهم وخالوه خيالاً، لاستبعادهم أن يحصل مثله حقيقة، فهم يكادون يرونه من المحالات، فلم يذكره المؤلفون منهم لذلك سواء.

برهان ضروري على وقوع هذه المعجزة :-

لا شك أن القمر قد شاع في زمن التابعين، واشتهر أيما اشتهار، وحدث به الأئمة منهم الذين قولهم هو القول وحديثهم هو الحديث، وان الناس تلقوه عنهم بالتسليم والتصديق، وحدثوا به هم أيضاً من لا يقدرون من الرواة. ولا ريب انه لم تأت رواية ـ لا صحيحة ولا ضعيفة ـ أن أحداً في ذلك العصر الزاخر بالصحابة والتابعين والعلماء والحكماء كذب ذلك، وقدح في روايته وراويه. هذان أمران أو مقدمتان لا شك فيهما عند من له إلمام بالرواية. فإذا انضم إليهما ما يعلم بالضرورة والتواتر عن أهل ذلك العصر، من العناية بالعلم و نقده وتمييز صادقه من كاذبة، وعليلة من صحيحه، بلا هوادة ولا مصانعة، وانضم إليهما أيضاً أن هذه المعجزة حادث عظيم، وآية كبرى، لا يمكن أن تكون مجهولة خفية على علماء ذلك العصر، لأنها من الأحداث الكونية الظاهرة، ومن المعجزات التي تحدى بها رسول الإسلام قومه وعزز بها دعوته، وجعلها من جملة براهينه على صدق رسالته : إذا علمنا هذه المقدمات الأربع علمنا يقيناً أن هذه المعجزة وقعت حقاً ،

وعلمنا يقيناً انه لا يمكن أن تكون كذبا، وأنها لو كانت كذلك لتوارد عن علماء ذلك العصر من الصحابة و التابعين إكذابها، والرد على ناقلها، ولما أمكن أن تشيع هذه الأكذوبة العظيمة في ذلك العهد، فلا يوجد من يكشفها، مع معرفة القوم وإحاطتهم بأحوال رسولهم وآثاره و

آياته الصغيرة و الكبيرة، وإحاطتهم بذلك كله بالدقة النادرة.

فمن زعم إن ذلك خفي على علماء ذلك العصر ـ الذي هو أغنى عصور الإسلام بالعلم والعلماء ـ فقد أزرى بالمسلمين أي إزراء.

أرأيتم لو كتب كاتب اليوم بأن الشمس قد انشقت معجزة لرسول الله صلى الله عليه و سلم، أو أن القمر انشق بعد هجرته إلى المدينة، فهل يمكن أن تمضي هذه الإكذوبة من غير أن يكذبها العلماء و الكتاب ؟!. أنه لا بد أن يكذبوها. و أرأيتم لو كتب كاتب بأن رسول الله هاجر إلى الحبشة، أو انه رأى مصر أو الهند أو العراق، فهل يمكن أن تمضي هذه الأكذوبة من غير أن يكذبها العلماء و الكتاب ؟!. أو لو إن كاتبا كتب أن الشمس أو القمر قد انشق منذ عشرين عاما، ورآه الناس، فهل يمكن أن تمضي هذه الأكذوبة دون أن تكذب ؟!. أو لو إن كاتبا كتب أن الشيخ محمد عبده العالم المشهور ذهب إلى الحجاز، وأدى فريضة الحج، انه لا بد أن يكذب ذلك تلاميذه الذين يعرفون حاله، ولا يجوز أن تمضي هذه الأكذوبة في الناس ولا يكذبها اخصاء هذا العالم ـ فكذلك لا يمكن أن يكون انشقاق القمر ـ وهو من أعظم الأحداث وأغربها ـ كذبا ويحدث به في زمن التابعين ومن بعدهم ـ وهم كما وصفنا صلاحا وحرصا على العلم ومعرفة بأحوال الإسلام ـ فلا يوجد من يكذبها. وهل هذه من الأمور الهينة التي قد تخفى أو يختص بعلمها فريق دون فريق ؟ ولو أن كاتبا كتب أن رسول الله ﷺ كان قد أعطي ناقة كناقة صالح، أو عصا كعصا موسى، أو يدا كيده، أو أنه عاش في قومه كما عاش نوح، أو غير ذلك من الأمور التي لا يخفى صدقها، كما لا يخفى كذبها، لما عدم ذلك الكاتب من يكذبه، ويرد عليه قوله. وكذا لو حدث محدثون عن مشاهير العلماء و الفلاسفة بأمور
كبيرة، يعرف صدقها وكذبها عادة، فلا بد أن يوجد من يكذب الكذب في ذلك من العارفين

بسيرة ذلك الذي حدثوا عنه.

فمن ذلك نعرف بالضرورة التي لا تكذب انه لو كان انشقاق القمر إسطورة ـ كما يقول هؤلاء ـ لما شاع في عصر التابعين والذين يلونهم كل هذا الشيوع، دون أن يوجد من يكشفه

ويرجعه إلى الباطل الذي هو منه. فهذا برهان قاهر على حصول هذه المعجزة على يد أشرف الخلق عليه الصلاة والسلام.

ولنا أن نقرر هذا البرهان بعبارة أخرى فنقول : لا شك أن أغلب المسلمين كان يدعي أن هذه المعجزة قد وجدت - إن لم نقل كل المسلمين. وإن الأحاديث الصحيحة قد تكاثرت في أصح كتب الإسلام بعد القرآن، بل في جميع كتب الإسلام، واشتهر ذلك اشتهارا طبق الآفاق و ذكره جميع الذين ألفوا في علامات النبوة، وجعلوه من آياته عليه السلام الكبرى، وتمدحوا به، وفاخروا به الأمم، وحاجوهم به أيضا. ومع ذلك كله لم يوجد بين اليهود، ولا النصارى، ولا غيرهم من أمم الكفر في ذلك العصر من نازع في وجود هذه المعجزة، ولا من ناكر فيها، أو قال كما قال هؤلاء المسلمون: لو أن القمر انشق حقيقة. لعلمه الناس كافة، ولما خفي علينا و على غيرنا، بل وجب أن نعرفه كما عرفتموه معشر المسلمين، ووجب أن يطلع عليه أهل الأقطار جميعا، وكما اطلع عليه أهل مكة . وبالجملة لماروا فيه هؤلاء الفضلاء ولكن هذا أمر لم يكن منه شيء .

ومن هذين الأمرين يبدو لنا، ولهؤلاء الفضلاء انه لا مطعن لطاعن في وجود هذه المعجزة، وانه لا تمكن المجاحدة فيها، وإلا لكان أولئك الكفار الخصوم هم أولى من هؤلاء المسلمين بهذا الإعتراض، وأسبق إليه منهم.

أفلا يكون هذا دليلا على ضعف اعتراض هؤلاء على هذه المعجزة كما كان إعراض العرب عن معارضة القرآن الكريم - وهم الخصوم الألداء - دليلا على ضعف معارضة من بعدهم ؟!. انه لكذلك .

هل تحسبون انه يوجد لخصوم الإسلام شبهات عليه صحيحة - كما زعمتم - فلا يدلون بها ولا يعارضون ؟!. وهل يمكن أن تكون اعتراضاتكم هذه صحيحة فيعرض عنها

الأعداء ؟! اللهم لا

ولقد آسفنا وآسف كل مسلم أن يقول بعض من كتب في هذا من المتأخرين المعاصرين، المعروفين بالدين والتحقيق والدفاع عن الإسلام والسنة والفضيلة : إن رواية

أحاديث انشقاق القمر تعد هنة من هنات علماء الإسلام وسقطاتهم التي توجب القدح فيهم وفي عقولهم، بل أسرف وقال : قد يكون ذلك قدحا في الإسلام نفسه وعيبا فيه. ونحن لا نقول عند هذا إلا (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) اللهم إنا نسألك العفو والعافية في الدين والدنيا، ونعوذ بك اللهم من الهوى، فإنه لا يفلح يا ربنا من ابتليته بهواه.

حديث السحر

عن عائشة رضي الله عنها قالت : " سحر رسول الله ﷺ يهودي من يهود بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله " رواه البخاري و مسلم وغيرهما. وللحديث روايات وبقية

وهذا الحديث صحيح الإسناد. وقد إعتاص على جماعة فكذبوه لا من جهة سنده، بل من جهة العقل ـ كما يقولون. ولهم على ذلك ثلاث شبه :

أولها ـ قالوا : هذا الحديث يصدق المشركين في قولهم (وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا)

ثانيها ـ قالوا هذا يزيل الثقة بما جاء به رسول الله ﷺ. فإنه إذا سحر وخيل إليه أنه يفعل الأمر ـ وهو لم يفعله ـ أمكن أن يخيل إليه أنه أوحي إليه، وهو لم يوحى إليه، وانه بلغ ما أوحي إليه، وهو لم يبلغه. وبالجملة أمكن أن يقع بالتخييل في كل أمور الدين، وأن يصدر عن خيال في كثير مما يأتي وما يذر، فلا يكون في فعله ولا قوله حجة ولا اطمئنان لذلك.

ثالثها ـ قالوا : السحر من عمل الشياطين، وصنيع النفوس الشريرة الخبيثة. وهؤلاء لا يتسلطون إلا على من غفل عن الله، ولم يستعصم بأسمائه و صفاته، ومن قصر في الطاعات وأعمال البر. أما من تحصن بعبادة الله، ولهج بذكراه ، وعاذ بحماه ، كالأنبياء، فليس للشيطان ولا للشريرين عليهم من سلطان. قال تعالى (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين)

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح و القلم
إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي فضلا وإلا فقل يا زلة القدم

يا سبحان الله ! ما أعظم جهل الإنسان وأشد غفلته ! ولو قرأ المسلمون نصوص دينهم ، وفهموها ، وتدبروها ، وعلموا آثار رسولهم ، وما كان يلاقيه ويصاب به ، وعلموا توحد الله بكل كمال دون الأنبياء والأولياء والملائكة لما أصاب عقيدتهم ما أصابها من تضعضع وخرافات وشبهات . فحديث السحر ونظائره يقوي الإيمان والتوحيد ، لا كما ظن هؤلاء أن فيه خدشاً للدين وأصوله .

حديث الذباب

روى أبو هرير ة رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه قال " إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه فيه ثم ليطرحه فإن في أحد جناحيه شفاء وفي الآخر داء " رواه البخاري وغيره . ورواه أيضاً ابن ماجه والإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري ، ولفظه قال : قال رسول الله ﷺ " في أحد جناحي الذباب سم وفي الآخر شفاء فإذا وقع في الطعام فامقلوه فيه فإنه يقدم السم ويؤخر الشفاء "

وهذا الحديث صحيح الإسناد لا مقدح فيه لقادح . وقد أنكره قوم طبياً ، وقالوا : ان الذباب يقع على الأقذار والأوساخ الملوثة بجراثيم الأمراض ، فيأكل منها ، ويحمل بأطرافه ، فإذا وقع في الطعام ، أو في الشراب رمى فيه من تلك الجراثيم والأقذار التي حملها ، فصار الطعام وباء لا يجوز تناوله . فقالوا : ثم أن الحديث لم يقتصر على ذلك ، بل حض على التزيد من تلك الجراثيم ، فأمر أن يغمس باقي الذباب في الطعام أو الشراب ثم يؤكل . قالوا : ومثل هذا كيف يأتي إليه الشفاء؟! وهل هذا إلا مثل أن يقال : إن في الزبالات المطروحة في الحارات شفاء ودواء ؟! فليس بممكن أن يكون هذا الحديث صحيح المعنى ، وليس بجائز أن يكون رسول الله قاله . ولئن كان قاله ليكونن مخطئاً فيه ، وليكونن من قبل الرأي الذي ليس معصوماً فيه ، قالوا : والأنبياء قد يخطئون فيما قالوه رأياً لا ما قالوه وحياً . وليكونن كحديث تأبير النخل . قالوا : وقد قرر الأطباء أن جيوشاً عظيمة فتك فيها الذباب ،

وجعلها فريسة المكروبات التي حملها ورماها فيما يأكلون ويشربون . هذا تلخيص شبهتهم في إضعاف هذا الحديث الصحيح .

ونحن نقول على ذلك : لا ريب أن الذباب يحمل الجراثيم الفتاكة ويلقيها فيما يقع عليه من طعام وشراب وغير ذلك . والحديث مقر بهذا مثبت له ، لأنه يقول ((في أحد جناحيه داء)) وفي الرواية الأخرى ((سم)) هذا حق لا نزاع فيه . وإنما الذي يقرره الحديث فوق ما عرفوا أن فيه شفاء أيضاً لذلك الداء ، أي هو يحمل مرضاً ويحمل علاجه ، ويحمل سماً وترياقا . فمن أين علم هؤلاء أن ذلك الدواء الذي رواه الحديث ليس موجوداً في الذباب ؟! ومن أين علموا أن الذباب لا يحمل شفاء ؟! إن جهلهم لذلك لا يدل على عدمه في نفسه . وهم يعرفون أن عدم العلم بالأمر لا يدل على أنه مفقود في الواقع . هم لا يستطيعون أن يدلوا به ـ والحديث يسلمه لهم ـ أن الذباب يحمل داء فحسب . وما ذكر ليس مما يدفعه العقل أو الطب . لا يدفع العقل ولا الطب أن تجتمع المتضادات في الأمر الواحد ، والجسم الواحد . والطب الحديث يقرر أنه يوجد في الخنزير علاج لبعض الأمراض ، كما يقرر أن فيه مكروبات قاتلة ، وانه يوجد في الأفاعي وغيرها منافع . وقد قرر الطب الحديث أن بعض المكروبات يقتل بعضا ، وان بعضها يموت بما يحي به الآخر ،

وقرر انه إذا أريد الوقاية من بعض الأمراض ، كالجدري والحصبة ، وغير ذلك يطعم الحيوان أو الإنسان بسم ميكروب ذلك المرض فلا يناله المرض بإذن الله . أي يؤخذ مكروب مرض الجدري ، ويوضع في سائل مدة ، ثم يصفى ذلك السائل من الميكروب بعد ان يقذف فيه سمه ، ثم يحقن الحيوان أو الإنسان بهذا السائل فيتكون في ذلك المحقون مادة سامة مفترسة لمكروب ذلك المرض نفسه ، فلا يصيبه ، بل إذا أريد حماية السليم من الطاعون حقن جسمه بميكروبات الطاعون المماتة بالحرارة ، فتكون عند ذلك المحقون مناعة من الطاعون ، ومثل الطاعون مرض الهيضة . بل من الأمراض ما تحقن ميكروباته وهي حية في الإنسان للوقاية من المرض ، وذلك مثل مرض الكلب . وهذا كله من معالجة الداء بالداء . ويستظرف هنا قول الشاعر :

وكأس شربت على لذة   وأخرى تداويت منها بها

وقال آخر : وداوني بالتي كانت هي الداء

وقول ثالث : فربما صحت الأجساد بالعلل

ومن الأمراض ما إذا أصاب مرة واحدة لم يصب أخرى . ومنها ماذا أصاب منع غيره . إذاً ليس غريباً أن يكون بعض ما يحمل الذباب من الأمراض يفترس أنواعاً أخرى منها . وليس محالاً أن يكون في أحد جناحي الذباب حيوانات صغيرة تقتل حيوانات أخرى . هذا أمر ليس محالاً ، وليس مفرداً في بابه . وقد أخبر به الصادق الذي (لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) والذي قامت البراهين الحسية والعلمية على أن كل ما صح سنده عنه من شئون الدنيا والطب حق وكلما يتقدم الزمن يظهر صدقه . ولو أخبر هؤلاء أحد أطباء الإفرنج بما دل عليه الحديث لما كذبوه ، بل لما شكو ا في صدقه . أوليست الحية قد جمعت في جسمها داء ودواء ؟! ففيها السم القاتل ومن لحمها يركب الترياق الذي يقي ضرر السم ؟! وكذلك النحل فإن في أحد طرفيه العسل وهو شفاء وفي الطرف الآخر ما يخرج منه وهو داء . فحديث الذباب له نظائر كثيرة معروفة .

تصحيح الطب الحديث لهذا الحديث

معجزة للإسلام ونبيه

هذا الذي قدمناه كله على سبيل التقريب ودفع الغرابة والاستحالة أما تصديق الحديث بالنص فهاك ما يأتي :-

ألقى طبيب عصري في جمعية الهداية الإسلامية منذ سنة وكسور محاضرة جاء فيها ما حاصله :

((يقع الذباب على المواد القذرة المملوءة بالجراثيم التي تنشأ منها الأمراض المختلفة ، فينقل بعضها بأطرافه ، ويأكل بعضاً ، فيتكون في جسمه من ذلك مادة سامة يسميها علماء الطب بمبعد البكتريا ، وهي تقتل كثيراً من جراثيم الأمراض ، ولا يمكن لتلك الجراثيم أن تبقى حية أو يكون لها تأثير في جسم الإنسان في حال وجود مبعد البكتريا إلى

ناحيته . وعلى هذا فإذا سقط الذباب في شراب أو طعام ، وألقي الجراثيم العالقة بأطرافه في ذلك الشراب فإن أقرب مبيد لتلك الجراثيم ، وأول واق منها هو مبعد البكتريا الذي يحمله الذباب في جوفه قريباً من أحد جناحيه . فإذا كان هناك داء فدواؤه قريب منه وغمس الذباب كله وطرحه كاف لقتل الجراثيم التي كانت عالقة، وكاف في إبطال عملها))

هذا ملخص ما قاله ذلك الدكتور العصري .

وفي مجلة التجارب الطبية الانجليزية عدد 1037 سنة 1927 ما ترجمته : ((لقد أطعم الذباب من زرع ميكروبات بعض الأمراض، وبعد حين من الزمن ماتت تلك الجراثيم، واختفى أثرها ، وتكونت في الذباب مادة مفترسة للجراثيم تسمى بكتريوناج . ولو عملت خلاصة من الذباب في محلول ملحي لاحتوت على البكتريوناج التي يمكنها إبادة أربعة أنواع من الجراثيم المولدة للأمراض ، ولاحتوت تلك الخلاصة أيضاً على مادة خلاف البكتريوناج نافعة للمناعة ضد أربعة أنواع أخرى للجراثيم)) .

وقد كتب بعض الأطباء الغربيين نحو هذا . فأصبح هذا الحديث الذي عده هؤلاء

المتسرعون كذباً وخدشاً في الدين صحيحاً ومعجزة علمية خالدة . فلعلهم بعد هذا يقللون من تسرعهم في إصدار الأحكام ، وفي تكذيبهم ما لم يحيطوا بعلمه . فمن أين لابن الصحراء هذه المسائل الدقيقة الطبية لولا أن الله يوحي إليه ؟!

وأما قول هؤلاء على الحديث : إنه من أمور الدنيا التي يجوز أن يخطئ فيها الرسول عليه السلام . فيقال : هل مثل هذا يقال رأياً بدون وحي ؟! ولو قاله بعض الصحابة أو التابعين لقلنا إنه تلقاه ، وإن حكمه حكم المرفوع ، ولا يمكن أن يكون قاله اجتهاداً ، إذ لا يمكن أن يقول ذلك تهجماً من غير رواية . وكل العلماء يقولون ذلك في أمثاله . وياليت شعري كيف قال ذلك وهو يجهله ؟! وكيف عرض أمته لخطر الذباب وما فيه من أمراض ؟! ومن الذي اضطره إلى أن يتهجم على أمور لا يستقل العقل والرأي بإدراكها وفهمها ؟! وكيف يعالج أمته وهو جاهل بأولويات الطب الضرورية ؟! والعلماء يقولون : إن من تعاطى الطب وهو جاهل به فهو ضامن . وروى عنه عليه السلام أنه قال " من تطبب ولم يعرف له

طب فهو ضامن " والحكومات تعاقب اليوم فاعل ذلك. نعوذ بالله !

لقد نسبوا أكمل الخلق وأعقلهم إلى ما لا يصح من عاقل . ثم لماذا لم يسعه السكوت عما لم يسعه السكوت غما لا يعلم ؟! أليس ذلك أحوط وأحكم والله يقول (ولا تقف ما ليس لك به علم) ؟! ونحن نعلم أن الذين وصموا رسول الله عليه السلام هذه الصمة ، وقالوا إنه قال ذلك برأيه لا يمكن أن يقولوا مثله من قبل عقولهم وآرائهم ، بل إن تورعهم وخوفهم من الإنتقاد يمنعهم من ذلك الهجوم . أو ما كان اللائق به ـ إذا كان الأمر كما يزعم هؤلاء ـ أن يقول : أظن كذا كما قال في خبر تأبير النخل ، لا أن يصدر كلامه فعل الموقن العالم ؟!. و إذا كان مخطئاً كما توهموا فلماذا لم يرد الله عليه خطأه بعد ؟! وهل يقره على خطأ وهو الأسوة الإمام ؟ ثم إن مقالة هؤلاء قد تدفع غيرهم يوما إلى أن يقولوا : إن جميع أبواب الربا والبيوع والمعاملات والعقوبات الموجودة في السنة هي من هذا القبيل ، هي من أمور الدنيا التي نحن أعلم من الرسول بها . فليس بلازم أن يكون الصواب حليفه فيها ، ولا لازم أن نتبعه فيما قال ، بل وتدفعهم إلى أن يقولوا : إن كل ما في الأحاديث من أحوال الأمم الماضية والآتية ، وكل ما ذكر قبيل الساعة من

الأهوال والأشراط ، وما ذكر في الآخرة من الأمور الشديدة : إن ذلك كله قد قاله الرسول رأياً ، كما هؤلاء في الحديث المذكور .

إن تكذيب هذا الحديث ، ورمي جميع رواته بالكذب والخطأ الأيسر عندي من أن يقولوا مقالتهم هذه . وما ظنهم لو قال احد مثل قولهم هذا أمام أبي بكر الصديق ، أو عمر بن الخطاب ، أو غيرهما من الصحابة رضي الله عنهم ؟ .

إذاً لقد صح هذا الحديث ، وأصبح معجزة من معجزات الإسلام الخالدة .

حديث تأبير النخل

عن طلحة قال : مررت مع رسول الله بقوم على رؤوس النخل فقال " ما يصنع هؤلاء " فقلت يلقحونه فقال رسول الله " ما أظن يغني ذلك شيئاً " قال : فأخبروا ، فتركوه ، فأخبر رسول الله بذلك فقال " إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فاني إنما ظننت ظنا ، فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به ، فإني لن أكذب على الله " وعن رافع بن

بعيداً) الآية . وقد صح أن الآية نزلت في الدنيويات ، وأن عمر بن الخطاب قتل من لم يرض حكمه عليه السلام فيها . وقال (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) . لا نحتاج أن نذكر أن الآية صريحة في أن ما يقوله عليه السلام وحي من الله بلا فرق بين أمر وأمر . وفي سورة الحشر (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) فبعد أن ذكر حكم الأنفال ـ وهي من الأمور الدنيوية ـ قال (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) فهل ينتهي هؤلاء عن مقالتهم هذه ؟!.

وبهذا تم أن قول هذه الطائفة من الناس أن الدنيويات يجوز أن يخطئ فيها إطلاقاً قول لا يقبله الصواب ، وخطوة واسعة إلى الخروج عن حدود الشريعة وتجاوزها . وقد يجيء من يقول ممن يقرءون كلام هؤلاء : ليس بلازم أن يكون الرسول عليه السلام

مصيباً في مسائل العقوبات ، والديون ، والحدود ، والزكوات ، وسائر الأموال قائلين : إنه كان في ذلك مجتهداً ، ويحتجون بحديث تأبير النخل كما فعلت هذه الطائفة . وسوف ترى وتسمع .

حديث لا عدوى

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ " لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر " . رواه البخاري ومسلم والحديث ثابت في الصحاح عن غير أبي هريرة أيضاً .

العدوى هي إنتقال المرض من إنسان أو حيوان إلي آخر . وهذا أمر واقع لا شك فيه . ويدل عليه النص والاستقراء والطب والإجماع .

فروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله عليه السلام : قال : " لا يورد ممرض على مصح " . والممرض هو صاحب الإبل المريضة والمصح عكسه . أي لا تورد الإبل المريضة على الإبل الصحيحة حذر العدوى . وروى البخاري أم رسول الله عليه السلام قال " فر من المجزوم فرارك من الأسد " وروى مسلم أنه كان في وفد ثقيف القادم على

رسول الله مجزوم ، فقال رسول الله " أرجع فقد بايعناك " . وفي الصحيحين أنه عليه السلام قال : " إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا فراراً منه " .

هذه الأخبار كلها تدل على وجود العدوى . وأما الاستقراء فما زال الناس يشاهدون الصحيح ينتابه المرض إذا خالط المريض، ولا سيما بعض الأمراض، كالجرب ، والجذام ، وبعض الحميات . وأما الطب فقد أجمع قديماً وحديثاً على أن ثم عدوى ، وكلهم ينهى عن مساكنة المريض . وأما الإجماع ففي البخاري ومسلم أن عمر بن الخطاب سافر إلى الشام ومعه الأنصار والمهاجرون فعلموا وهم في الطريق أنه وقع في الشام وباء ، فاستشار عمر من معه : أنرجع أم نمضي ؟ فقالت له طائفة : خرجت لأمر فلا نرى أن ترجع عنه .

-54-

وقالت أخرى : معك بقية أصحاب رسول الله عليه السلام ، فلا نرى أن تدخل بهم على هذا الوباء . ثم قفل عمر رضي الله عنه راجعاً بمن معه . فقال أبو عبيده: أفراراً من قدر الله . أرأيت لو نزلت وادياً له عدوتان : إحداهم ا مخصبه ، والأخرى مجدبة ، أليست إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ؟! . فهم لم يختلفوا في العدوى وإنما اختلفوا : هل يرجعون فراراً منها ، أم يمضون اتكالا على الله ؟ ثم إن الميكرسكوب كشف سبب الأمراض ، وأنها حيوانات صغيرة جداً تحل في الجسم فتقذف فيه سماً ، وترعاه حتى يفسد . والحيوانات تنتقل بالمباشرة والمقاربة . إذاً فما معنى قوله " لا عدوى " ؟ .

عنه جوابان : أولهما ـ أن قوله لا عدوى نهي لا نفي والمعنى لا يعد بعضكم بعضاً . أي لا تتعرضوا لذلك بل اتقوه ، واتقوا مكانه . وهذا كقوله تعالى (فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج) أي لا يكن ذلك منكم . ومثل قوله عليه السلام " لا ضرر ولا ضرار " ، وقوله : " لا صلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس ولا صلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس " وأشباه هذا كثير . و يصحح هذا الجواب آخر الحديث . فقوله ((لا طيرة)) أي لا تشاؤم معناه لا تتطيروا ولا يقع منكم ذلك . وليس المعنى أن الطيرة مفقودة في الناس. وكذا ((لا هامة)) وهي طير معروف ((ولا صفر)) وهو الشهر المعروف .

والمراد لا تعتقدوا في شهر صفر ولا في الهامة ما كان الجاهليون يفعلونه ويعتقدونه . وليس بممكن أن يكون نفياً .

وثاني الجوابين - أن يكون نفياً لما كان عليه الجاهلية ، لا لنفس العدوى ، لأن أهل الجاهلية كانوا يبالغون في أمر العدوى والتشاؤم ، ويوسوسون فيهما حتى يمتنعون من زيارة المرضى ، والقيام عليهم ، وقد يمتنعون من الأسفار التي أزمعوها تطيراً وتشاؤماً ، وأنا أعرف عالماً فاضلاً من المحققين أصيب بهذا الوسواس فضر بصحته كثيراً ، وأضناه ، وأنحل جسمه ، حتى إنه ليصافح الأصحاء إذا ما ألجيء إلى ذلك بأطراف أصابعه ، ويجذبها منهم سريعاً خائفاً أن يكونوا حاملين أمراضاً فيعدوه ، ومن رأي هذا الأستاذ أنه لا يصح الدخول على المريض مطلقاً ، ولا زيارته . فقيل له : إن زيارة المريض واردة في الشريعة ، وهي من محاسنها . فقال : إذا زار زائر مريضا وجب عليه

ألا يدخل عليه ، بل يقف بعيداً ويسلم عليه بالإشارة . ومثل هذا الأستاذ كثير . ولا جرم أن تشاؤماً يوقع صاحبه في هذا لأعظم ضرراً من الاختلاط بالمرضى ولهذا ينعى الأطباء كثيراً عن المبالغة في الخوف والتشاؤم .

فهذا النوع من العدوى هو المنفي المبطل بهذا الحديث ، لا أصل العدوى وهذا مثل قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون) والشفاعة والخلة - الصداقة - موجودتان على وجه مشروع . والمنفي في الآية هي الشفاعة والخلة التي كان يظنها الكافرون الجاهلون . وكذا قوله (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال) وخلال جمع خلة ، وهي الصداقة . وقوله (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) ، وقوله (مالكم من دونه من ولي ولا شفيع) وهذا كله نفي لما يدعيه المشركون . وكذلك قوله " لا عدوى " هو نفي لما كان عليه الجاهليون الغالون . ويقرب من هذا المعنى أن تسمع قائلاً يقول : في المسلمين خير كثير ، ولهم قوة ، وفيهم علماء وفلاسفة فتقول : ليس فيهم شيء من ذلك ، وأنت لا تعني بذلك الإبطال العام ، وإنما تريد أن تبطل المبالغة التي دل عليها قول القائل .

وبهذا اتفقت أقوال النبوة وأحدث النظريات الطبية .

وقول عمر بن الخطاب : نفر من قدر الله إلى قدر الله من الكلمات النوابغ الجوامع التي يندر وجود مثلها ، وهي من أسمى ما تصل إليه القرائح البشرية ، ومما تنضى دونها عقول الفلاسفة والحكماء . وهي من الأمثال الطائرة السائرة . وإنه لخليق بأمة تنتهي بدائه أميها إلى هذه المراقي السامية أن تسود العالم ، وأن تذل لها أعناق الأكاسرة والقياصرة . والمثل الذي ضربه لأبي عبيدة يكاد يكون مشكاة النبوة . فلله عمر ، ولله العرب حكماء علماء كادوا من فقههم يكونون أنبياء !! .

أحاديث الدجال

تواترت الأخبار النبوية في جميع كتب السنة الصحاح وغيرها تواترت لا يدع للريب

مكانا انه يخرج في آخر الزمان قبيل الساعة مخلوق فتان كذاب يسمى الدجال ، يخلق الله على يديه أمور تعد عظيمة من الخوارق ، يمتحن بها عباده كما يمتحنهم كل في كل آن ، ويميز بها المنافق من المؤمن ، والثابت العقيدة من مزعزعها . قد روى ذلك عن محمد عليه السلام من لا نقدر على إحصائهم من صحابته رضوان الله عليهم . وخرجه من لا نقدر أن نعدهم من العلماء والمؤلفين في كتبهم . واشتهر بين المسلمين شهرة تغني عن أن يستدل على وجوده ، أو يشك فيه حتى أدخلوه في صلواتهم يستعيذون من كل يوم أكثر من خمس مرات ، ويذكرونه في الليل والنهار ، يسألون الله الوقاية من شره ، والحفظ من فتنته ، قارنين بين الاستعاذة منه والاستعاذة من جهنم لتلازمهما حساً ومعنى ، لأنه حامل راية جنودها ، وقائدهم إليها . حتى أمر رسول الله ـ كما في مسلم ـ بالاستعاذة منه في الصلاة أمراً . ورأى فريق من العلماء أن من لم يستعذ منه في صلاته فصلاته ملغاة . وهذا لاهتمام الشارع به ، ولخوفه على أمته منه ، ولعظم بلواه . أعاذنا الله منه .

فهذا الدجال معلوم عند عامة المسلمين علما ضرورياً لا يشكون فيه كما لا يشكون في أن رسول الله عليه السلام ولد في مكة ومنها هاجر إلى المدينة ، وتوفاه الله فيها ، ودفن فيها ، وبنى مسجده فيها ، وكما يعلمون أن الله فتح له مكة ، وأذل به كفار قريش وطواغيت العرب في حياته . بل كما يعلمون أعداد الصلوات وأن منها الجهريات والسريات ومنها

مكتسبة من النار وآتية لها منها ، فالحرارة آتية أصالة من النار . أو يقال : ما الشمس إلا شرارة من شرر النار ، إنقذفت منها ووقفت كما هي الآن لمصالح العباد .

هذه أمور ثلاثة في الحديث لا نرى عائقاً من أن تكون تفسيراً له . وبها يزول ما في الخبر من إشكال .

الحمى من فيح جهنم

ومثل هذا الحديث قوله ﷺ " الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء " رواه البخاري ومسلم .

الحمى حرارة تتولد في الجسم إذا أصيب فيه أحد مراكز التدبير بسميات المكروبات ، أو بآلام أخرى شديدة . فإنها إذا أصيبت بذلك فسدت حركتها ونظامها ، فتولدت الحرارة المسماة بالحمى . هذا أمر لا شك فيه . ولكن ظاهر الحديث خلافه . فإنه ربما دل أن حرارة الحمى آتية من لهب النار المعدة للكافرين .

فقالت طائفة : إن في الكلام تشبيهاً . والمراد أن حرارة الحمى كحرارة جهنم في الإيلام والإيجاع . وفي هذا القول ما في القول الأول على الحديث السابق من الضعف .

والرأي الصحيح أن نقول : إن حقيقة الحمى - كما ذكرنا - تتولد في الجسم لإصابة مركز من مراكز التدبير فيه . غير أن الحرارة المتولدة بذلك هي من جهنم رأساً . أي إن الله أخرج من النار جزءاً يسيراً ونثره في الأرض يصيب به بعض خلقه إذا ما توفرت أسباب الإصابة .

وأسبابها القريبة هي ما يذكره أهل الطب . ولكن الحديث تكلم فيه من جهة منشئه

ومبتدئه . ولا مانع أن يكون من غيرها . فإذا ما جاء الخبر الصادق بأن ذلك من النار لزم القول به .

وأما قوله " فأبردوها بالماء " فهو موافق للطب العصري ، حتى إن الأطباء العصريين يضعون ألواح الثلج على أجسام بعض المحمومين . غير أنه لا يجوز استعمال ذلك وتعاطيه بدون إرشاد الطبيب واستشارته . فقد يكون فيه ضرر لبعض المحمومين . والدواء كله إذا استعمل بوصف الجاهل عاد ضرراً ، وإن كان في أصله نافعاً مفيداً . بل الغذاء إذا لم يؤخذ بالحكمة

والتقدير كان قاتلاً أو ضاراً . فكل شيء يحتاج إلى رئيس ومختص يضعه بحكمة وتقدير . فالحديث يدل أن الماء البارد مما تعالج به الحميات ولكن بعد أن يعرف الميزان والمقدار فيه النافع ، وبعد أن يقدره العارفون به ، والعارفون بالطب . وهذا كما يقال : القرآن هدى ورشاد . وإذا قرأه غير العاقل وغير الفاهم له قد يكون ضلالا له وفتنة . وأمثال ذلك . فهذا الحديث من معجزات محمد ﷺ الطبية العلمية التي لا يمكن معرفتها إلا بوحي أو تعلم ، وهو لم يتعلم ، فلا جرم أن تكون وحياً .

الكافر يأكل في سبعة أمعاء

عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال : " المؤمن يأكل في معى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء " رواه البخاري ومسلم وروى مسلم عن أبي هريرة أن ضيفاً ضاف رسول الله وهو كافر فأمر له بشاة فحلبت فشرب حلابها ، ثم أخرى ، ثم أخرى ، حتى شرب حلاب سبع شياه . ثم أنه أصبح فأسلم فأمر له بشاة فشرب حلابها فأمر له بشاة فشرب حلابها ، ثم بأخرى فلم يستتمها . فقال رسول الله : " المؤمن يأكل في معى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء " .

بيان الحديث أن المؤمن حقاً ، الصادق في إيمانه ، كثير التفكير في الآخرة ، وفي عذابها ، كثير الخوف من الله ، ومن عصيانه وعقابه ، كثير الخضوع والعبادة ، كثير السهر والتهجد والصلاة والصيام ، كثير الجهاد في سبيله وسبيل دينه ، كثير الورع والإبتعاد عن الحرام وعن مظانه ، وعن الشبهات ومواقعها ، كثير العناية بدينه وفهمه ، كثير البحث

والتنقيب عما يرضي الله ويقرب منه ، وعما يغضبه ويباعد عنه ، كثير الاحتياط لعقيدته وإيمانه خوف أن يصيبه شيء من غبار البدع والشبهات ، كثير الرغبة في الجنة والزهادة في الدنيا ولذاتها ، كثير هذه الأمور كلها : يقل نصيبه من الدنيا من مأكل ومشرب ، وملبس ومسكن ، وجمع مال فهو يأكل في معى واحد فقط . وهذا كناية عن أنه قليل حظه من الدنيا ولذائذها بتعلقه بالأمور المذكورة اللازمة للإيمان الصحيح . ولا يريد الحديث أن خلقته مخالفة خلقة الكافرين ، ولا أن تركيب بدنه خلاف تركيب بدن غيره .

وأما الكافر الذي لا يبالي بالدين ، ولا بما يغضب الله أو يرضيه ، فهو عكس المؤمن في

فأقول لك : إن الأكل هنا جنس يتناول أنواعاً . يتناول الأكل حقيقة ، ويتناول اللبس ، والسكن ، والادخار ، والجمع ، وكل ما فيه تمتع .ودليل ذلك الآيات المتقدمة . وإذا ذلك كذلك فأحد أنواع الأكل الأكل المعروف ، كما فعل الرجل المذكور في كفره وإيمانه ، والأنواع الأخرى التي يتناولها لفظ الأكل دل عليها قوله " والكافر يأكل في سبعة أمعاء " .

وسبب الحديث لا يكون مخصصاً عمومه . فالعموم باق على حاله ، وإن كان السبب خاصاً لا عموم له . وبيان هذا أن الرسول عليه السلام لما رأى ذلك الكافر وكثرة ما يأكل ذكر خلقاً من أخلاق الكافرين ، وهو التمتع باللذات المادية بشره وشدة . والمعاني تتداعى . وتفسير هذا قول العلماء " العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب " يريدون أن اللفظ عاماً في دلالته وإن كان خاصاً سببه . وغالب عمومات الشرع أسبابها خاصة .هذا من جهة الأكل . أما من جهة العدد فلا ريب أنه لا يريد في مثل هذا الاستعمال تحديد العدد . ومثل ذلك أن تقول : فلان يتكلم بسبعة ألسن ، أو سبعة أفواه ، ويأكل في سبعة بطون ، او سبع أيدي ، وينظر بعيون كثيرة ، ويمشي بأرجل عديدة ، وأمثال ذلك . لا شك أن القائل لذلك لا يقصد العدد المذكور ، وإنما يريد المبالغة . ومن فهم من هذه الأقوال العدد فهو كمن فهم من قوله تعالى (تجري بأعيننا) وقوله (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون) وقوله (وخلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً) العدد . وكان كذلك الوزير الذي قال له الحجاج : اقطع لسان هذا . يشير إلى شاعر مدحه ونال إعجابه . فأخذ الوزير الموسى وآلة القطع وأحضر الشاعر ليقطع لسانه . وكان الحجاج يريد أن يعطيه مالاً يكف لسانه عن ذمه .

وبما ذكرنا صار الحديث واضحاً ، وقاعدة من قواعد الأخلاق الإسلامية . وهي أن المؤمن العاقل الحكيم لا بد أن يكون مستقلا من الشهوات المادية ، مستقلا من خدمة الدنيا لذاتها ، ليس بذلك الطماع الجشع ولا اللحز الشحيح ، ليس بعزيز عليه أن يضيع ماله في وجوه البر والخير ، بل له شأن أسمى من ذلك ، وغرض أعلى ، وهو تنمية الروح وتذكية العقل . ولا أهدم لأخلاق الأمم ، وللمدينة الفاضلة من الحرص على الماديات والشهوات .

أحاديث العين

روى البخاري ومسلم عن رسول الله عليه السلام أنه قال : " العين حق " وزاد مسلم " ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين " وثبت في البخاري وغيره عنه عليه السلام أنه كان يعوذ الحسن والحسين بهؤلاء الكلمات " أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة " ويقول " كان إبراهيم يعوذ بهن إبنيه إسماعيل وإسحاق " . والأخبار في هذا الباب متواترة .

وقد اتفقت الأمم بالإجمال على أن للعين تأثيراً . فلا تجد أمة إلا وفيها من يعرف بذلك ، ومن يصدقه ويعترف به ، ويروي فيه الروايات الكثيرة العجيبة التي يستحيل أن تكون كلها كذباً ، وأن يكونوا تواطؤوا على الجهل والغلط والكذب فيها . بل يكاد يكون في كل بلدة من يعرف عنه ذلك الداء الوبيل ، والناس يحكون عنه الأشياء الكثيرة ، ويذكرون أنهم شاهدوها .

وسمعنا من أناس كثيرين أنهم يعرفون أناساً لا تخطيء لهم عين حتى أنهم يقصدون لذلك . فإذا ما أراد إنسان الوقيعة بآخر أجر من يعرف بهذا للقيام بهذه المهمة ، فيقوم بها خير قيام ، ويقضي على تلك الفريسة بكلمة أو نظرة . وحدثني إنسان أنه كان في قريته شخص عرف بالحسد حتى إنه إذا مر فريق من الطير في السماء قال لهم : أي هذه الطيور تريدون ؟ فيشيرون إلى واحد فيقول فيه كلمة ، أو ينظر إليه نظرة ، فيخر ذلك الطير صريعاً . وكذلك يصنع بالبهائم والروايات في ذلك كثيرة . وكلنا يسمع من ذلك الشيء العجيب وإن كنا نرتاب في صحة كثير منه .

ونحن لا نقول : إن جميع ما يروى صحيح . وإنما نقول إنه مستحيل أن يكون كله غير صحيح . ولا شك أن أغلب أهل الأرض يؤمنون بذلك . والذين ينكرونه هم طائفة قليلة من المتعلمين السطحيين ولا أظن أن جمهور النوع الإنساني يتفق على الخطأ القرون الطويلة . ولئن جاز أن يتفقوا على الخطأ في أمر عقلي نظري فليس بجائز أن يتفقوا على الخطأ في أمر يرجع دليله إلى المشاهدة والحاسة . وأمر العين راجع إلى المشاهدة والحاسة . ولئن جاز هذا الذي لا يجوز فلن يجوز أن تجتمع الأديان كلها على الخطأ . وقد اجتمعت كلها على أمر العين ، والإصابة بها . والدين الإسلامي يقرر ذلك أصدق تقرير . وفي القرآن الكريم ما يومئ إليه . قال تعالى : (قل أعوذ برب الفلق) السورتين . فقد أنزل الله فيه قرآناً ، وأمر الرسول بالتعوذ منه . وفي سورة

يوسف حكاية عن يعقوب (وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) الآية. يقول طوائف من المفسرين : إنه خاف على بنيه العين إذا دخلوا مجتمعين ، فأمرهم أن يدخلوا مصر متفرقين لئلا تصادفهم عين حاسدة .

وأما الطائفة المولعة بالإنكار والجحود فقد كذبت أمر العين ، وأنكرت الحسد ، وعدت المصدق به من العوام ، ولم تعبأ بأن تصادم ديناً أو تصادم روايات كثيرة صحيحة ، واتفاق جماهير لا يحصون . لم تبال بشيء من ذلك . وليس معها من دليل على تكذيبهم وإنكارهم الإنكار البات غير الاستبعاد القائم على الجهل المحض .

فإذا ما قيل لهم: من أين علمتم إنكار ما أنكرتم؟! وما برهانكم على أن الديانات مخطئة ، والأمم غالطة ، والروايات كاذبة ؟! لم يكن لهم من جواب غير أن يقولوا : لا يمكن أن يصيب الشخص الآخر بغير اتصال وملامسة ، ولا يمكن أن يؤثر بالحسي المادي إلا حسيّ ماديّ مثله نراه ونبصره بأعيننا ؛ فإذا ما قيل لهم ما المانع من أن يؤثر المعنوي بالحسيّ ؟! وأن تؤثر الروح بالجسم وبالروح أيضاً من غير ملامسة ومقاربة ؟! وما المانع أيضاً من أن يؤثر الجسم بالجسم بلا اتصال ؟! أو ما المانع من أن ينبعث من روح العائن أو من عينه أو من جسمه أمر يصرع المعين وان لم نبصره ؟! ما المانع من ذلك وإن كنت لا تراه ؟! وليس كل ما لا يرى باطلاً . وقد كان الناس قبل أن يخترعوا " الميكروسكو ب " ينكرون الميكروبات لأنهم لا يبصرونها ولا يحسونها. ولو ذكرت لهم لكذبوا بها ، ولما آمنوا بها. أوليس من " الميكروبات "

ما دق على " الميكروسكوب " وما هو فوق " الميكروسكوب" ؟! أي إن من النسمات التي تعرف " بالميكروبات " التي بها تحدث الأمراض ما لم يشاهد حتى الآن ، وما لم يحس مع العلم أنه يحدث الأضرار ويقتل الأحياء ؟! ولو قيل ذلك لطائفة الجحود والإنكار لم يكن لها من جواب فيه مقتنع .

فيا هؤلاء المنكرون ! ماذا تنكرون من ذلك ؟! أو لسنا نرى الحي يموت بمجرد أن تفارقه الروح ، ويحي بوجودها فيه ؟! وهل رأينا الروح أو أحسسناها ؟! أو لسنا نرى الحي يمهد ، أو يموت موتاً أصغر إذا جاءه ذلك الشيء المجهول المعلوم الذي نسميه نوماً أو موتاً ، ويصحو ويقوم إذا ما فارقه ونحن لا نحس ذلك ولا نبصره ؟! أو ليس الساحر يؤذي المسحور من غير

إتصال ولا تلاق ؟! أو ليس الهم يذيب الجسم ، والفرح ينعشه ويملؤه رونقاً وبهاء . والفرح والهم غير محسوسين ولا مبصرين ؟! أو ليست الذكرى تلعب بالذاكر لعب النكباء بالرمح الخطل ، والذكرى غير محسوسة ولا مبصرة ؟! فماذا تنكرون بعد هذا يا هؤلاء ؟! إن من الأفاعي لنوعاً يخطف الأبصار ويسقط الأجنة من بطون أمهاتها عند المشاهدة والرؤية . وهذا النوع هو الذي قال فيه رسول الله عليه السلام " اقتلوا الأبتر وذا الطفيتين من الحيات ، فإنهما يسقطان الحبل ويلتمسان البصر " ؟! وإن لم يقنعكم هذا قلنا لكم : إن من الأشجار لشجرة تنفعل بالرؤية والمقابلة ، فتنكمش إذا نظر إليها ناظر ، وتذبل وتتضاءل . وقد ذكرت ذلك المجلات المصرية نقلاً عن الغربية . وصورت هذه الشجرة .

تصحيح العلوم العصرية لهذه الأحاديث :-

فإن لم يقنعهم ما قدمناه قلنا لهم : أنظروا إلى التنويم المغناطيسي . أنظر كيف ينوم الشخص الآخر ، ويفقده حواسه ، ويتصرف فيه كما يرى ، بمجرد أن يقف أمامه ، وأن ينظر إليه ويفكر فيه . بذلك يقضي شعوره ووجدانه ، حتى لا يحس ضرباً ولا ألماً . وليس في هذا التنويم شيء من الاتصال والملامسة , وإنما هو تسليط روح على روح . أليس هذا هو مثل الحسد الذي ينكرونه ويجحدونه أثبته العلم إثباتاً لا يتحمل النقض ؟! .

إن التنويم المغناطيسي ، وتصرف المنوِّم في المنوَّم هو من عمل الروح وتصرفها . وكذلك الحسد الذي يأبون الإيمان به :

والروح لها شأن عجيب غامض . والزمان يفسرها شيئاً فشيئاً .

والناس كلهم يلزمهم أن يؤمنوا بتأثير العين ، وبتأثير غير المباشر ، وبتأثير الروحي المعنوي في الحسيّ المادي . فإنهم جميعاً يقولون : إن لهذا العالم المتقلب المضطرب ، الحي ، الميت ، المتحرك ، الساكن , قاهراً وسلطاناً غائباً عن الأبصار والحواس يدبره كما نراه بلا اتصال ولا مباشرة . وليس تدبيره إياه موقوفاً على أن يتصل به ، وأن يباشره . إذاً مالهم أنكروا ذلك في الأرواح وهم به مؤمنون ضمناً . هم بين أمرين : إما أن ينكروا رب العالم ومصرفه . أو

ينكروا قولهم الذي أنكروا به تأثير العين .

ما يروى عن إبراهيم من الكذب

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال " لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات . ثنتين منهن في ذات الله . قوله (إني سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) " قال " وبينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له : إن هذا رجل معه امرأة من أحسن الناس . فأرسل إليه فسأله عنها . فقال : من هذه ؟ قال : أختي . فأتى سارة فقال : يا سارة ليس على وجه الأرض مسلم غيري وغيرك . وإن هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي . فلا تكذبيني . فأرسل إليها . فلما دخلت عليه ذهب ليتناولها بيديه . فأخذ فقال : إدعي الله لي ولا أضرك . فدعت الله فأطلق . ثم تناولها الثانية ، فأخذ مثلها وأشد . فقال : إدعي الله لي ولا أضرك . فدعت الله فأطلق . فدعا بعض حجبته فقال : إنك لم تأتي بإنسان إنما أتيتني بشيطان . فأخدمها هاجر . فأتته وهو يصلي . فأومأ بيده : مهيم ؟ قالت : رد الله كيد الكافر في نحره ، وأخدم هاجر " رواه البخاري . ورواه مسلم بسياق آخر مخالف لهذا السياق بعض المخالفة . والحديث صحيح الإسناد لا مغمز فيه . موافق لما في القرآن الكريم . مفسر لما ذكر عن إبراهيم عليه السلام فيه .

وقد كذب الحديث جماعة ، واعتلوا بعلل ضعيفة :

قالوا أولاً - هذا خلاف قول الله تعالى في إبراهيم من سورة مريم (واذكر في الكتاب إنه كان صديقاً نبياً) قالوا والصديق هو الذي لا يكذب .

وقالوا ثانياً - لا بد أن يكون الرسول معصوما من الكذب . ولو جاز عليه الكذب لما وثق بشيء من قوله . وهذا خلاف الإجماع وخلاف الدين .

قالوا ثالثاً - إن الأمور المذكورة عنه عليه السلام ليست من مادة الكذب ، ولا مما يصدق عليه تعريفه . إن هي إلا معاريض . وفي المعاريض مندوحة عن الكذب . فالحديث الذي يقول إنها كذب لا يكون صحيحاً لمخالفته اللغة والواقع .

وقالوا رابعاً - إذا كان مثل ذلك يسمى معاريض , ويسمى كذباً ، فلماذا اختار رسول الله في حق خليل الله أبشع اللفظين ؟! ولماذا لم يقل أحسنهما ؟! ولماذا لم يسمه معاريض ؟! .

فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ وفي قوله ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾

-110-

سجود الشمس تحت العرش

عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ أنه قال حين غربت الشمس (أتدري أين تذهب هذه ؟) قلت : الله ورسوله أعلم . قال (فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها ، فيقال لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها . وذلك قوله تعالى ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾) رواه البخاري ومسلم . وفي لفظ لهما (فتستأذن في السجود فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها ارجعي من حيث جئت) .

وقد ظنت طائفة أن هذا الحديث يدل على أن الشمس تغيب عن الأرض في وقت وتذهب لتسجد تحت العرش ، فكذبوا الحديث ، وقدحوا في روايته ورواته ، وهم عدول . قالوا : إننا نعلم بالضرورة والمشاهدة والحس أن الشمس لا تفارق الأرض لحظة ، وإنما تغيب عن قسم منها وتطلع على قسم آخر حتى تقطع الأرض كلها كذلك . قالوا : ولا حديث الذي يخالف المشاهدة والحس لا يصدق .

وقالت طائفة : إن الحديث صحيح ، وإن الشمس تذهب كل يوم وتسجد تحت العرش ، وتغيب عن الأرض . ولم يعبأوا بأن يعاندوا الضرورة والمشاهدة .

والطائفتان غلطتان غلطاً مبيناً . يتبين لك ذلك بتفسير الحديث كلمة كلمة . فنقول الذي في هذا الحديث ما يأتي :

أولاً - إن الشمس تغرب .

ثانياً - إنها تذهب وتجري .

ثالثاً إنها تسجد تحت العرش .

رابعاً - إنها تستأذن فيؤذن لها .

خامساً - إنها تجري حتى تستقر تحت العرش ، وإن العرش مستقرها .

سادساً ـ إنها تطلع أخيراً من مغربها .

-111-

هذا جملة ما في هذا الحديث . فلننظر أفيه ما يخالف المشاهدة والحس .

أما الأول وهو أنها تغرب ، فلا إشكال فيه . لأن الغروب هو الإختفاء . والشمس تختفي . ولا يضرنا أن يكون الغروب أي الإختفاء ناشئاً من سير الأرض ، أو من سيرها هي . فالعرب تقول غرب الجبل وغاب . إذا ما أبعدوا عنه حتى إختفى عنهم . والجبل ثابت مكانه لا يزول . والذين يقولون إن الشمس ثابتة يقولون لها غربت وطلعت . وغروبها مذكور في القرآن .

أما الثاني , وهو أنها تذهب وتجري ، فلا شك فيه أيضاً . لأن علماء الفلك اليوم يقولون : إنها تدور حول نفسها ، ويقولون إن لها دورة أخرى حول نجم آخر . والدوران لا يكون إلا من جري بالضرورة ، لأن الجري هو المشي . ثم إن الجري له استعمال آخر مجازي ، كما تقول الآن : إن الحكومة السعودية العربية تجري إلى الأخذ بأطراف الكمال والمدنية الفاضلة بجد ونشاط ، وكما يقال جرى قلم القضاء بما يكون ، وأمثال ذلك . ولا يراد به الحركة والإنتقال حقيقة .

وأما الثالث ، وهو أنها تسجد تحت العرش ، فنقول : قد اخبر القرآن أن كل شيء في السموات والأرض يسجد لله ، كما قال ﴿ ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ ، وقال : ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس، وكثير حق عليه العذاب ﴾ ، وقال : ﴿ النجم والشجر يسجدان ﴾ والآيات في هذا كثيرة . كما قد أخبر أن كل شيء قد أسلم له ، وكل شيء يسبحه ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ ، ﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ ، ولا يراد بذلك سجود كسجود العقلاء . وإنما يعنى به أحد ما يأتي : -

إما أن يكون ذلك عبارة عن الانقياد والخضوع . والناس يسمون هذا سجوداً . كما قال الشاعر :

أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني فلا أعاتبه صفحاً وإهوانا

وكما قال آخر :

فكيف بمن لو أنني لحت واقفاً هوى ساجداً من خشيتي وقضى النحبا

وكما قال عمرو بن كلثوم :

إذا بلغ الفطام لنا صبياً تخر له الجبابر ساجدينا

والمراد بهذا السجود الخشوع والإنقياد . ويقوي هذا التفسير قوله في الآية ﴿ طوعاً وكرهاً ﴾ ، وقوله : ﴿ وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ .

وإما أن يكون المراد بالسجود الدلالة على الله . يعني أن هذه المخلوقات تدل على الله ، وعلى أنه يستحق أن يسجد له كل شيء ، وأن يعبده كل شيء . وهذا مجاز مشهور في اللغة . والتفسير الأول في السجود هو التفسير .

وأمـا تقييد السجود بأنه يكون تحت العرش فهو مبالغة في الإنقياد وعبارة عن تمام ذلك . كما يقال : فلان يسجد تحت قدمي فلان ، ويسجد تحت سريره ، وتحت عرش الملك . والمعنى في ذلك المبالغة ، ولا تراد الحقيقة . فقوله إنها تسجد تحت العرش يعنى أنها خاضعة له أكمل الخضوع وأتمه .

وأما الأمر الرابع ، وهو أنها تستأذن فيؤذن لها ، فنقول : غاية ذلك ان يكون مجازاً يراد به طاعتها لخالقها ، وطلوعها وغروبها بمشيئته وإرادته ، حتى كأنه يأمرها وينهاها فتعقل عنه ، وحتى كأنها تستأذنه في رواحها وغدوها . وهذا كله يعبر عن الخضوع . فإن الخاضع يستأذن المخضوع له عادة , ويستأمره فيما يأتي وما يذر ، ويسير حسب إذنه . فأطلق الإستئذان وأراد به ما يتبعه عادة ، وهو ما ذكرنا . وهذا النوع من التوسع شائع في الكلام . فهم يقولون : هذه الرسوم البالية تخبرنا أن كل شيء بال ، وان كل جديد فإلى البلى والزوال . ويقولون : هذه السيوف تشكو طول مكثها في الأغماد ، ويقول القائل منهم : شكا إلى جملي وناقتي طول السرى ، وشكت هذه الدابة إليّ الجوع والتعب ، ويقولون : هذا البيت يخبرنا أن بانيه حاذق بناء ، وهذه الصورة تقول إن من رسمني لراسم ماهر . ويقولون : قالت عينا الحبيب سمعاً وطاعة وأمثال ذلك لا يحصى . وطائفة من المفسرين يقولون : إن كل ما نسب إلى الجماد والسماء ، والأرض من المقال ، والخطاب بينها وبين الله محمول على ذلك . وذلك كقوله في السماء والأرض ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ ونظائرها المعروفة في القرآن . ومثله استئذان الشمس وسجودها .

وأما الخامس ، وهو أنها تجري حتى تستقر تحت العرش فيقال : أما الجري فقد ذكرنا معناه . وأما أنه يكون تحت العرش ، فيقال : هذا كناية عن رجوعها إلى الله . إذ ليس وراء الله لمخلوق مرجع ولا مذهب فهو كقوله تعالى ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ ، ويقول الناس : " خطاب العرش " وهم يريدون خطاب من على العرش . أو يكون المراد بذلك أنها تستقر تحت العرش أخيراً عندما يأذن الله للساعة بأن تقوم .

وأما الأمر السادس ، وهو أنها تطلع من مغربها ، فيقال : هذا عندما يأذن الله تعالى للعالم بالخراب والفناء ، ليخلق عالماً من أنقاضه أصلح للسكنى وأكثر إراحة لعباده . وهذا من علامات الساعة . والأخبار بأن الشمس تطلع من مغربها في الصحاح .

هذا جملة ما في الحديث مما قد يعد مشكلا قد بان لك أيها القارئ أنه لا يقضي برد الحديث الصحيح . فإن قلت : إن كل ما ذكرت جميل لولا أن قوله ﴿ تذهب حتى تسجد تحت العرش ﴾ يدل على أن السجود غير الذهاب ، وغير التصريف والإنقياد . لأنه قد جعل السجود نهاية ذلك وغايته . فلا بد أن يكون السجود المذكور غير ما عبرت عنه بالخضوع .

قلت عن هذا جوابان :

أحدهما ـ أن المراد بالسجود تحت العرش هو وقوعها تحته حقيقة في آخر الدنيا عند إنقضاء مهمتها ، وسكون حركتها . والمعنى أن الشمس تبقى في شأنها إلى أن يأذن الله بفساد العالم ، فتقع تحت العرش ساجدة . وكل شيء إلى إنقضاء إلا وجه ربنا تعالى .

وثانيهما ـ ان هذا مثل أن تقول : سار فلان حتى سار سيراً متعباً . وسار حتى أجد في السير . وسار حتى إنقطع ظهره من الإعياء . وأمثال هذه الكلمات . وليس جنس الذي قبل (حتى) غير الذي بعدها فيه . على أن (حتى) قد تكون للعطف المطلق كالفاء والواو . وهذا قول مشهور لطائفة من علماء النحو . وعليه يكون سياق الحديث " تذهب فتسجد تحت العرش " إلى آخره . وعلى هذا يخلص الحديث من هذه الشبهة .

وعلى كل حال فالحديث عبارة عن أن الشمس مسخرة لله ، خاضعة لأمره الكوني ، سائرة على حسب ما أراد وقدر ، حتى كأنها عاقلة ، تسمع خطابه . والرواية الأخيرة وهي تقول " حتى كأنها قيل لها أرجعي من حيث جئت " تشهد لهذا وتقوي أن يكون الحديث تمثيلاً

لحالة الشمس . فالحديث صحيح المعنى مع تدبره ومع إعطائه ما يليق به من التفهم والتعقل والتريث في إصدار الأقوال . فإن الزلل كثيراً ما يقارن العجل .

نسخ التلاوة في القرآن

وردت أحاديث في الصحاح وغيرها تدل على أن آيات من القرآن الكريم قد نسخت تلاوتها مع إبقاء أحكامها . ففي البخاري عن عمر بن الخطاب أن آية الرجم قد نزلت في كتاب الله . وفي صحيح مسلم أنه كان مما يقرأ في كتاب الله " لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب " وقوله يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة " ويوجد أمثال ذلك في الصحاح وغيرها .

فاستشكل هذا طائفة من الناس قالوا إن القرآن ، بل والكلام كله من إخبار وإنشاء ، يراد به الدلالة والإفهام . ولا توجد الدلالة إلا عند وجود الدال ، وتفقد عند فقده . فإذا أبطل اللفظ , أي نسخ - وهو الدال - فكيف تبقى الدلالة والحكم ، بل لا بد أن تبطل الدلالة عندما يبطل الدال ، أي لا بد من نسخ الحكم إذا ما نسخ النص الذي دل عليه ، فإذا نسخت آية من القرآن فلا بد من نسخ حكمها ودلالتها . ولا معنى لنسخ اللفظ وهو التلاوة مع بقاء حكمه . ولو أرسل حاكم إلى رعيته كتاباً ضمنه أوامر ونواهي ، ثم أرسل إليهم يقول : إني نسخت ألفاظ الكتاب : ألفاظ الأوامر والنواهي ، لكان ذلك لا معنى له ، ولكان عبثاً لعباً . ومثل هذا نسخ التلاوة في القرآن مع بقاء أحكام ما ينسخ ، ثم أي حكمة في هذا العمل ؟! إنه خال من الفائدة ليس فيه إلا التغرير والتضليل للمكلفين المأمورين المنهيين .

وأيضاً إن القرآن كان يتلقى بالتواتر كل لفظ منه . فكيف ينسخ مثل هذا ؟! ولو جاز فيه النسخ لجاز عليه الضياع . فلا يمكن أن تكون أخبار نسخ التلاوة صحيحة ، ولا بد أن يكون في أسانيدها أو في تأديتها خلل . هذا حاصل الطعن في نسخ التلاوة .

ونحن نقول : إن الأحاديث في نسخ التلاوة كثيرة صحيحة ، يبعد جداً أن تكون كلها

كذباً ، ويبعد جداً ألا يكون لها أصل وما ذكر من الشبهة ليس بالقوي الذي يمنع وقوع النسخ .

العصر ، وكصور الأنبياء والأولياء في المساجد والمعابد وغيرها . فإن ذلك مجلبة للفتنة وللزيغ ، كما تفعل صورة المسيح عليه السلام في نفوس من يغلون فيه . ومن الصور المجسمة ذات الظل ما يباح اتخاذها ، وذلك كلعب الأولاد من الحلوى والخرق كما كان ذلك لأم المؤمنين عائشة زوج النبي عليه السلام . فهذا القول غير مطرد ، وغير منعكس .

على أنه ليس هنالك صور غير مجسمة ، فإن الصور كلها مجسمة . وذلك أن التصوير عرض لا بد أن يقوم بجسم . فالصور التي في الورق هي مجسمة وجسمها الورق ، كما أن جسم هذه التماثيل المنصوبة في الميادين هو النحاس . فالتفريق بين النوعين غير صحيح ، وغير موجود أيضاً . والحكمة التي يذكرها هؤلاء في تحريم الصور تبطل عليهم هذا التفريق . وذلك أنهم يقولون : إنما حرم الشرع الصور حذر الفتنة في الخلق وحذر الرجوع إلى عبادة الأوثان . فإن التماثيل والصور مما يحدث غالباً . فيقال : هذا الأمر الذي خافوا منه لأنه منشأ الفتنة في عبادة الصور ، موجود في الصور مطلقاً المجسمة وغير المجسمة وهذا لا ريب فيه . فمن ينازع فيما تحدثه صور الملائكة وعيسى بن مريم عليه السلام ، وصور الأولياء كالإمام الشافعي وغيره على الورق وعلى الحيطان لدى من يغلون فيهم ، ويسرفون في تعظيمهم ؟! ومن يشك في أنه لا فتنة في تصوير قائد من قواد الحرب والجيش ؟ على أن الأخبار كلها تدل على تحريم ما سموه غير مجسم . فقد كانت الصور تأتي على الأثواب وما شابهها لبلاد العرب فيأمر رسول الله عليه السلام بتمزيقها وهتكها ويحذر من اتخاذها . على أن غالب ما كان يوجد في الحجاز ذلك العصر هو الصور غير المجسمة . فكان رسول الله صلى عليه وسلم يحرمه ويأباه ولا شك انه إذا حرم الصور تناول تحريمه في أول ما يتناول ما كان موجوداً في بلاد من يخاطبون في التحليل والتحريم .

أحاديث المعراج

قد صحت الأخبار فيما لا يحصى من كتب الإسلام أن رسول الله عليه الصلاة والسلام عرج به إحدى الليالي ، قبل أن يهاجر إلى المدينة إلى السموات العلى ، حتى دنا من رب العزة وتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله إليه من الحكم والأحكام ما أوحي ،

وفرض عليه الصلوات الخمس ، ورأى الأنبياء في السموات على تفصيل فيه ، ورأى آيات عظيمة كبرى لا يعلمها إلا الله . كل ذلك في ليلة واحدة ، ثم رجع به إلى مكة المكرمة في الليلة فأصبح يحدث الناس ببعض ذلك فصاروا ما بين مصدق ومكذب .

روى ذلك أعلم علماء الإسلام، في أصح كتب الإسلام بعد القرآن . رواه البخاري ومسلم وعامة المحدثين ، وشاع بين الخاصة والعامة شيوعا يكفي بعضه أن يكون المعراج من المتواترات التي لا تقبل النزاع . وقد جهر القرآن بذلك أيضاً ، فقال في سورة النجم (والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوي ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمرونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى)

فالمعراج ثابت في القرآن ، وفي السنة المتواترة ، فهو من يقينيات الدين . هذا إجمال أمر المعراج بلا تفصيل لكل ما حصل في تلك الليلة العظيمة .

وقد استشكل فريق من الماديين ، ومن يأخذون أخذهم من المسلمين أمر المعراج فأنكروه ، ووجهوا إليه ما يأتي من الشبهات :

قالوا أولاً : إن الأحاديث تدل أن الإسراء في سورة الإسراء منوهاً بشأنه قال : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا) ولم يذكر المعراج والمعراج بلا ريب أعظم من الإسراء ، وأرفع . فلماذا

ذكر الإسراء دون المعراج ، وهما في ليلة واحدة وفي طريق واحد ، وأحدهما بعد الثاني ؟ ليس لهذا السؤال جواب مرض إلا أن يقال : إنه لم يكن معراج ، أو يقال إن الإسراء كان في ليلة والمعراج في ليلة أخرى . وهذا القول خلاف الأحاديث .

وقالوا ثانياً : إن الأخبار في المعراج فيها اختلاف كثير ، حتى وقع الاختلاف في الأحاديث الصحيحة منها . ففيها اختلاف هل كان يقظة أم مناماً . وهل كان الإسراء والمعراج في ليلة أم في ليلتين . وهل كان بالروح وبالجسد أم بالروح فقط . وبالجملة وقع

اختلاف كثير في كثير من أمور المعراج . والاختلاف إذا اشتد يوجب سقوط الروايات وتساقطها .

وقالوا ثالثاً : في أخبار المعراج ما هو محال لا تمكن صحته . ففيها أنه صلى بالأنبياء في بيت المقدس ، وأنه رآهم في السموات ، ورأى موسى يصلي في قبره . فهل يمكن ذلك ؟ أوليس في هذا ما يشهد على أن الشخص الواحد قد توجد له عدة ذوات إلا أن قال : إن الأنبياء كانوا في تلك الليلة ينقلون من مكان إلى مكان ، فرآهم في الأرض ، ثم عرج بهم إلى السموات فرآهم هناك ، وهكذا يقال في صلاة موسى في قبره

وأيضاً كيف ذلك ؟ فهل أحياهم الله في تلك الليلة ؟! أم الأنبياء أحياء لا يموتون . وأنتم لا تقولون بذلك ، وهو خلاف النص ؟! أو ليس قد صح عن رسول الله انه قال " اذا مات ابن آدم انقطع عمله " إلى آخره ؟! فصلاتهم في بيت المقدس وصلاة موسى في قبره مخالفة هذا الحديث . فأيهما يقبل وأيهما الصحيح !!

وأيضاً قد رأى النيل والفرات عند سدرة المنتهى ، وهذان نهران في الأرض . فكيف يمكن هذا ؟! .

وأيضاً إنه قد رأى نسمات الكافرين والمؤمنين في السماء عن يمين آدم وشماله . وقد قال الله تعالى (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين) فهل نقبل الروايات ، وقد خالفت القرآن الكريم ؟! ثم هل الأرواح ترى ؟! وهل هي مدركات البصر ؟!

وأيضاً في الروايات أن الملائكة قد شقوا صدره عليه السلام قبل أن يعرجوا به ،

وأخرجوا منه نصيب الشيطان ، وملؤوه حكمة وإيماناً . وفي هذا كله غرابة وبعد عن العادة .

هذه الأمور كلها تدل على اختلاق الروايات في المعراج . فإن من الدلائل على كذب الرواية أن تحمل ما لا يعقل .

وقالوا رابعاً : إن الهواء يوجد فوق الأرض عدة أميال فقط ، وبعد ذلك يفقد ، والهواء ضروري للحياة . فلا يعيش إنسان ولا حيوان بدونه ، وبدون أن يملأ رئتيه منه .

فلو كان رسول الله ﷺ عرج به إلى ما فوق الهواء لما أمكن أن يبقى حياً .

وقالوا خامساً : إن أخبار المعراج تدل على أنه فتحت له أبواب السماء . ونحن نعرف أنه ليس للسموات أبواب تفتح بل السموات لا تقبل الخرق والالتئام .

وقالوا سادساً : الروايات تدل أيضاً على أن السموات سبع وأنها غير النجوم المعروفة لأهل التنجيم والفلك . وهذا كله غير صحيح .

وقالوا سابعاً : الأخبار تقول إن ذلك المعراج وقع في ليلة واحدة . وهل هذا يستطاع . وكم بين السماء والأرض من المسافات . هذا ما لا يكاد يصدقه العقل .

هذه شبهاتهم على المعراج . وغالب هذه الشبهات هي في الحقيقة شبهات من ينكر القادر المختار . فهي شبهات على جميع الأديان ، وعلى المعجزات عامة . وهي شبهات مادية إلحادية صرفة .

أما قولهم : لماذا لم تذكر سورة الإسراء المعراج مع الإسراء ، وهما في ليلة واحدة . فنقول : إن العلماء قد اختلفوا هل كان المعراج والإسراء في ليلة أم ليلتين . قال بكل طائفة . واحتجت كل طائفة بروايات . فقد جاء في الروايات الصحيحة ما قد يدل على أنهما كانا في ليلة واحدة وجاء فيها ما قد يدل على أنهما كانا في ليلتين . وعلى الرأي الأخير يسقط هذا السؤال جملة . وعلى الأول نقول : إن لله تعالى حكمة بالغة في ذكر الإسراء في السورة دون المعراج . وذلك أن الله علم أن المشركين والمخالفين سوف ينكرون ذلك كله إذا ما حدثهم به رسول الله عليه السلام ، وسوف يهزؤون برسول الله من أجله . وقد حدث هذا . أما الإسراء فانه يقدر أن يصدق قوله إذا كذبوه بأن يذكر لهم بيت

المقدس ، وصفة المسجد الأقصى ، فينتصر عليهم ، وتكون له الحجة . وهذا قد كان . وأما المعراج فبماذا يكذبهم إذا كذبوه ، وبماذا يصدق قوله ؟! فلو نعت لهم السماء وما رأى فيها لما كان في ذلك مقتنع لهم، ولا حجة عليهم لأنهم لا يعرفون ما هنالك. فكان من الحكمة البالغة أن يذكر في سورة الإسراء التي تتلى على المشركين المعاندين الإسراء دون المعراج، حكمة منه بالغة.

على أن الإسراء إلى بيت المقدس إنما كان مقدمة للمعراج، وطريقاً إليه، على القول

بأنهما كانا في ليلة واحدة. قد يكون حينئذٍ من الجائز المناسب المعهود أن يذكر الإسراء دون المعراج، لأنه إذا ذكر الإسراء علم أنه يعني به ما بعده. ومن أجل ذلك يذكر كثير من المؤلفين المعراج في باب الإسراء. والقرآن يقول (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا) وهذه الآيات فيما يبدو ، ولمن فكر جيداً ، هي الآيات التي رآها في المعراج . فأشار إلى المعراج بما وقع فيه من الآيات والعجائب . وليس بلازم ذكره نصاً . ثم إن المعراج قد ذكر في سورة النجم كما تقدم . فذكر الإسراء في سورة ، وذكر المعراج في سورة أخرى , وما في هذا شيء من الغرابة .

وأما قولهم: إن الأحاديث متخالفة . فنقول : إن الاختلاف لم يقع في أصل المعراج . فإن الروايات كلها مجتمعة على وقوع المعراج ، وإنما كان بعض الاختلاف في بعض صفاته وهيئاته ، كما ذكرنا . وقد قدمنا في أحاديث انشقاق القمر وأحاديث الدجال أن كل أمر عظيم ذي بال لا بد أن يقع في صفته وهيئته وشكله اختلاف ، وأنه على قدر عظمه يكون الاختلاف في ذلك . ولكن ذلك الاختلاف لا يقدح في وجود ذلك الأمر الذي اختلف في صفاته يقيناً . وقدمنا هنالك أن الاختلاف قد وقع في صفات الرسول ، والملائكة ، والجنة ، والنار ، وفي الحساب والعقاب ، وفي أعمال الرسول عليه السلام ، وفي سائر عظماء التاريخ ، ولم يدل هذا على أن هؤلاء لم يوجدوا عند أحد من خلق الله . فكذلك أحاديث المعراج لا يدل الاختلاف في بعض صفات المعراج على أن المعراج لم يقع . وهذا ضروري .

ونحن هنا لا نتعرض للتوفيق بين الروايات نفسها . فإن ذلك ليس مما قصدنا له في هذا الباب . على أن من حاول أن يجمع بين الروايات كلها في المسائل الكبيرة كالمعراج ، والدجال ، وأحوال الساعة فقد حاول محالا في رأينا . إذ لا بد أن يكثر الدخيل في ذلك لكثرة التحديث به ، وكثرة روايته ولاشتهاره والعناية به .

وأما قولهم : إنه وقع في أخبار المعراج أشياء لا يمكن أن تكون صحيحة ، فلا يمكن أن تكون الأخبار إذاً صحيحة . فنقول : هذه الأشياء المذكورة إما أن تكون محالة الحصول ، كانت أخبارها هي الكذب فقط دون أخبار المعراج . ولا مانع أن يقع في الحادثة الواحدة

صدق وكذب ، ومحال وجائز ، فيكذب الكذب والمحال ، ويصدق الصدق والجائز . وذلك كالأخبار عن حاتم الطائي بالكرم ، وعن عنترة بالشجاعة وعن قيس بن الملوح بالعشق . فإن الأخبار عنهم بما اشتهروا به جمعت صدقاً وكذباً ، ومحالا وجائزاً . ولكن كذبها لا يقضي بأن يكون صدقها كذباً ، وصدقها لا يقضي بأن يكون كذبها صدقاً . فالأخبار عن حاتم بالجود متواترة ، ولكن دخلها مبالغات لا يقبلها العقل ، ولكن يصدق مطلق الجود له ، وكذلك الأخبار عن عنترة بن شداد بأنه شجاع متواترة ، ولكن دخلها مبالغات لا يصدقها العقل ، ولكن يصدق مطلق الشجاعة له . وكذلك الأخبار عن قيس بن الملوح متواترة بأنه كان عاشقا ، ولكن دخلها مبالغات لا يصدقها العقل ، ولكن يصدق مطلق العشق له . وكذلك حصل في أخبار جميع الرجال المشهورين ، وفي الأحداث الكبيرة . فوقع فيها مبالغات لا تصدق . وقد وقع ذلك في معجزات الأنبياء وكرامات أتباعهم ، وفي أخبار الجنة والنار وما بعد الموت ، وهذا لا يقدح في الحق منه . ومثله أخبار المعراج إذا افترضنا أنه وقع فيها ما لا يكون وجب رده هو دون أصل المعراج . وهذا واضح . هذا على الفرض الأول . وأما إن افترضنا أن الأشياء المذكورة غير محال حصولها بطلت الشبهة رأساً . فهذه الشبهة لا تقدح في المعراج على جميع الافتراضات .

على أن هذه الأمور المنكرة عندهم قد وقعت في أخبار الإسراء . فهل يكذبون الإسراء لذلك ، والإسراء مذكور في القرآن ؟! على أننا نجاوب عن الأمور المذكورة واحداً فواحداً ، لا لأن إشكالها يقدح في المعراج ، بل لأنها هي في نفسها مشكلة عند هؤلاء .

وكتابنا هذا للمشكلات .

أما رؤيته ﷺ الأنبياء في بيت المقدس ، ثم رؤيته لهم بعد ذلك في السماء ، ففي هذا تفاسير كلها صحيحة :

أولها - أن يكون الذي رأى هي الأرواح ، رآها في بيت المقدس ، ثم عرج بها إلى السموات فرآها هنالك . وقد قدمنا الكلام على الأرواح في أحاديث عذاب القبر .

ثانياً - أن يكون الله خلق له عليه السلام أشخاصهم ، فرآهم في السماء وفي الأرض لحكمة بالغة .

ثالثها - أن يكونوا مثلوا له تمثيلا . فرآهم وخاطبهم ، وخاطبوه .

هذه التفاسير ثلاثة ، وكلها لها نظائر في فعل الله وفي علوم هذا العصر أيضاً . وليس المعنى في هذا أن تكون الذات الواحدة في مكانين في وقت واحد . لا

وقولهم : كيف يصلون والميت ينقطع عمله كما قال عليه السلام : " إذا مات ابن آدم انقطع عمله " الحديث . يقال عليه : إن سنة الله المطردة الغالبة أن الإنسان إذا مات انقطع عمله كما في الحديث المذكور ولكن الله قد يخلق خوارق : إما معجزات لرسله ، أو كرامات لأوليائه . كما ذلك للأنبياء وللأولياء في مواضع معلومة . ولكن ذلك لا يتخذ سنة عامة وأمراً مطرداً شأن المعجزات والكرامات والخوارق . فالحديث الذي يخبرنا بانقطاع الأعمال يخبرنا عن السنة العامة في الأموات. وصلاة الأنبياء ليلة الإسراء والمعراج هي من قسم الخوارق . والخوارق يؤمن بها المؤمنون والكافرون . إلا أن الكافرون يسمون ذلك فلتات الطبيعة ، كما يجعلون ما في الكون م ن حكمة ونظام من ناموس الطبيعة ، وقد كانت ليلة الإسراء والمعراج كلها خوارق وعجائب . وليس ما حصل فيها طبق السنة العامة المطردة ، ولا ريب في هذا . وقد صح في الأحاديث المتكاثرة أن بعض الأحجار والأشجار والجماد والحيوان كان يخاطب رسول الله ﷺ ، وكان يعقل عنه . وليس معنى هذا أن هذا سنة الأشياء ، وإنما ذلك كله خوارق للناموس العام الشائع . فليراع هذا هؤلاء الذين يجعلون صلاة الأنبياء في ليلة المعراج دليلا على أن الأنبياء أحياء حياة مادية

كحياتهم قبل أن يموتوا . بل قد يقولون : إن حياة الأنبياء ، وتصرفهم في موتهم أكمل من ذلك في حال الحياة . وهذا غلط شائع . وإلا فما معنى الموت حينئذٍ ؟! إنه لا موت على رأيهم . وهذا خلاف الدين والضرورة والإجماع .

وأما إنه رأى النيل والفرات في السماء وهما نهران في الأرض ، فقد سلف الكلام على ذلك في بحث خاص .

وأما إنه رأى نسمات الكفار في السماء والله يقول : (لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة) فيقال : إن الآية في جانب والحديث في جانب آخر ، فالآية تعني أن الكفار لا يدخلون الجنة وقوله بعد ذلك (ولا يدخلون الجنة) كالتفسير لذلك . والحديث دل على أن

أرواح الكفار قد يعرج بها إلى السماء حيناً لحكمة ، كما فعل في المعراج على أنه مثلت له أرواحهم تمثيلا ، فرأى مثلها لا أعيانها .

وأيضاً الآية تعني أن الكفار في الشأن الغالب لا يعرجون إلى السماء شأن المؤمنين . فأن المؤمنين يعرج بهم حين الموت إلى السماء وأما الكفار فيذهب بأرواحهم إذا ماتوا في أسفل سافلين . هذا هو ما تعنيه الآية ، ولا تنفي أن يذهب بأرواحهم يوماً لحكمة إلى السماء على أن مثل هذه العبارة قد تعبر عن الرحمة والقبول ، كما يعبر عكسها على عكس هذا المعنى . فيقال مثلا : هذا دعاء تفتح له أبواب السماء ، وهذا عمل تغلق دونه أبواب السماء . ويراد بالأول أنه دعاء مرضي مقبول ، وبالثاني أنه عمل غير صالح ، فهو مردود . فكذلك قول الله (لا تفتح لهم أبواب السماء) يريد أنهم بعداء مغضوب عليهم وقد يقول العربي صاحب اللسان " لا تفتح لفلان أبواب الملوك " . ولا يعني بقوله هذا أنه لا يدخل على الملوك أبداً ، وإنما يعني أنه ليس بصاحب جاه ولا مقام عند الملوك ، ولا ممن تعظهم الملوك ، كما يدل عكس العبارة على عكس المعنى . ثم إن الآية تريد أنهم بأجسامهم لا يدخلون في ملكوت السماء ، وفي حديث المعراج رأى أرواحهم فقط .

وأما قولهم : وهل الأرواح ترى . فيقال في الأرواح مذهبان : الأول ، وهو القول الصحيح ، لا ريب أن الجواهر ترى ، وأنها من مدركات الأبصار . وعلى المذهب الثاني

يقال : لا ريب أن الأعراض والمعاني ترى إذا مثلت أجساماً . وقد كانت الملائكة يتمثلون ، وكذلك الجن . ومستحضروا الأرواح الآن من الفرنج وغيرهم يدعون أنهم يرون الأرواح ، وأنها تخرج لهم بصور أناس محسوسين فيحسونها . وهذا يوافق آراء طوائف من علماء الإسلام سلفوا ، وعلى كل حال ليس هذا خارجاً عن متناول القدرة الإلهية .

وأما قولهم : إن الملائكة شقوا صدره عليه السلام . فنقول : هذا حق لا شيء فيه . والجراحون الآن من الأطباء يعلمون عمليات في الجراحة هي أعظم من هذا .

وأما قولهم : إن الهواء يفقد بعد أميال فوق الأرض ، فلا يمكن أن يعيش أحد فوق منقطع الهواء . فنقول : نحن لا نريد أن نجادل هؤلاء كما يجادلهم فريق من المؤمنين بتلك الطريقة التي لا نرضاها المنطق ، وهي أن نجتهد بأن نقيم لهم الدلائل على أن ذلك الأمر

جار على ناموس الطبيعة المطردة ، وأنه مألوف في الخلق معروف ، وليس غريباً في بابه . فإننا إذا ما فعلنا ذلك أخرجنا ذلك الأمر عن أن يموت معجزاً ، وأن يكون من خصائص النبوة . وهذا صنع من لا يقر بالإله القادر الفعال ، وصنع من ينكر الرسالة والمعجزات والخوارق . وهذا هو أصل الدين وعماده .

وإنما الطريقة التي نرضاها ، ويرضاها المنطق في إثبات هذه الحقائق أن نقول لمن يخاطبنا في ذلك : إما أن تكون مؤمناً بالله وبالرسالة والرسل ، أو تكون منكراً ذلك ، غير معترف بشيء منه . فان كنت الأول لم يكن علينا إلا نبين لك أن هذا الأمر قد جاء بسند صحيح عن صاحب الرسالة ، وهذا الأمر كاف بالإثبات لأن الأمر جائز ، وإنما يتوقف إثباته على ثبوت سنده . وإن كنت الآخر قلنا لك : أنت إلى إقامة الدلائل على الإله والرسول أحوج منك إلى إثبات المعراج ونحوه من جزئيات الدين . هكذا يكون أسلوب الجدل والرد على المنكر . وليس من الأسلوب الصحيح ، والطريقة المرضية في البحث أن نجيء من ينكر الله ، وينكر أنبياءه وكتبه ، ونتعب أنفسنا في سبيل أن نقنعهم بأن المعراج ونحوه ليس خارجاً عن ناموس الطبيعة ، ولا مما يختص به صاحب الرسالة ، ولا مما يدل على العناية والإصطفاء. فإننا في مثل هذا لا نصل إلى النتيجة التي نحاول الوصول إليها،

وهي أن تثبت أن محمداً رسول الله ، بل نحن نسعى في صد الناس عن الإيمان بذلك ، لأننا إذا أقنعنا ذلك المخالف بأن المعراج ليس مما يخص رسول الله بل يكون ذلك له ولغيره على حسب نواميس في الطبيعة نزعنا الإعجاز من ذلك . وهل يكون الرسول رسولاً إلا بالمعجزات ؟! .

ومن العبث واللعب في البحث أن نذهب لنقيم الدلائل على المعراج لإنسان يجهل قدرة الله ، أو يجهل الله ذاته ، وينكر المعجزات والآيات وجميع الخوارق ، ولا نبدؤه بإثبات هذه الأمور قبل كل شيء ، بل يلزم أن نبدأه بإقامة الدلائل على الله وعلى قدرته ، وأنه يفعل ما يشاء . ولكن أساليب البحث في هذا العصر عقيمة غير منتجة . والناس متقدمون في عصرنا في الحسيات والتجريبيات ، متأخرون في العقليات والنظريات . وليس بين الأمرين تلازم . فإن الأطفال والصناع يحذقون الأمور الراجعة إلى التجارب ، ولكن يجهلون الأمور

الراجعة إلى العقل والنظر . بل الأمور التجريبية قد يعرفها الحيوان الأعجم ويتقنها ، ولكن لا يعرف شيئاً من العقليات . وأنت إذا ما تدبرت هذه المناقشات والمساجلات التي تتردد في الجرائد والمجلات والكتب الحديثة رأيت ما رأينا في أهل هذا العصر من تأخر الأساليب المنطقية الجدلية .

هذه هي الطريقة التي نرضاها ويرضاها المنطق . وإلا لو أردنا الطريقة التي لا نرضاها ولا يرضاها المنطق لقلنا لهؤلاء المخالفين يا سبحان الله ! هؤلاء الفرنج يحاولون الطلوع إلى القمر والمريخ ويأملون أن يكون ذلك يوماً ، ويصدقهم هؤلاء في هذا الأمل ، ولا يعدونه محالاً على قدرتهم . فكيف لا يسلمون مثله لقدرة الله جلت قدرته ؟! أليس هذا هو النقص في التفكير الذي ليس بعده نقص !؟ أوليس الذي خلق الهواء وخلق الإنسان ، وجعله محتاجاً إلى الهواء والنفس قادراً أن يجعل عباده مستغنين عن الهواء عائشين بدونه ؟! أوليس الذي جعل الأجنة في بطون الحاملات يعيشون بدون هواء ولا نفس ، والذي جعل الأسماك تعيش في بطون البحار ولا تحتاج إلى ما يحتاج إليه حيوان البر من الهواء والتنفس قادراً أن يجعل من يشاء من عباده غنياً عن ذلك ؟! أوليس الهواء وما فوق الهواء خاضعاً لله تعالى ، والله قادر أن ينقله من مكان إلى مكان حسب ما يريد ،

-129-

وحسب ما يشاء ؟! وهذا الإنسان الضعيف ، يتلاعب الآن بالهواء ، ويسخره ، فيسوقه من مكان إلى مكان ، ويفرغ منه ما يشاء ، فيجذبه إلى الغواصات والغواصين في أعماق البحار . فكيف يعجز الله الخالق لكل شيء عما استطاع الإنسان الضعيف الذي لا يعيش من ضعفه بدون الهواء ؟! .

إن فقراء الهند يروضون أنفسهم مدة فيأتون بالعجائب ، ويستطيعون الحياة بدون الهواء والتنفس أزماناً . وقد روت عنهم الصحف أن الواحد من هؤلاء يلقى في قارورة وضع فيها زيت ، فيقفل عليه ويحكم القفل ، بحيث لا يجد الهواء إليه سبيلا ، فيبقى كذلك أسابيع ثم يخرج حياً . وقد روت إحدى الجرائد المصرية ، وروى الشيخ رشيد رضا في وحيه أن واحداً من هؤلاء سدت جميع المنافذ في جسمه التي يدخل منها الهواء بالقطن ، ثم وضع في صندوق وقفل وأحكم قفله ، ثم دفن في الأرض فظل أربعين يوماً كذلك ، ثم أخرج

حياً . عمل هذا وأدخل وأخرج على أعين طائفة من الزعماء والأطباء . فكيف يعجز الله عن مثله ؟! .

وأما قولهم : إن السموات ليست لها أبواب ، فهو قول مجرد ، ودعوى لا سند عليها . ومن أين علموا أن السموات ليست لها أبواب ولا مفاتيح (وما يعلم جنود ربك إلا هو (ويخلق ما لا تعلمون) . وفي القرآن (لا تفتح لهم أبواب السماء) وما ادعى أحد من علماء الشرق ولا الغرب أنه أحاط بكل شيء خلقه الله علماً . وهؤلاء إذا كانوا يطلبون منا أن نترك نصوص الدين بلا دليل ، فكيف نقبل قولهم بلا دليل ؟ذ على أنه لو صح ما قالوا لما كان هذا مخالفاً له . فان قوله فتحت أبواب السماء ، وأمثال هذا القول ، ليس صريحاً بإثبات ما نفوه . فإنه يقال : اللهم افتح لنا أبواب رحمتك . اللهم أفتح لنا أبواب فضلك . ولا يراد بأمثال ذلك الأبواب حقيقة ولا الفتح حقيقة .

أما قولهم : إن السموات لا تقبل الخرق والالتئام ، فهو وهم مجرد ما لهم عليه من سلطان . على أنه لم يكن في أخبار المعراج خرق ولا التئام ، وإنما فيها فتح . وقد قدمنا الكلام في الفتح .

وأما قولهم : إن الأخبار تدل على أن السموات سبع ، وأنها غير الأفلاك المعروفة

لأهل النجوم والفلك . فيقال : عدد السموات مذكور في القرآن الكريم , وفي الأحاديث المتواترة . ليس ذلك من فرائد حديث المعراج . ولا شك في وجود سموات سبع عند أحد من العلماء والخلاف إنما وقع في تعيين هذه السموات ، لا في وجودها . وأحاديث المعراج لم تعيينه . فإن كان ما يعتقده الجمهور في السموات السبع باطلا , لم يكن غيره باطلاً . وما قال عالم إنه علم كل شيء في الوجود . والعلماء الآن متفقون على أن الفضاء لا نهاية له ، ولا حد له . وإذا كان ذلك كذلك فالمخلوقات في هذا الفضاء الذي لا يحد لا يقدر أحد على إدراكها ورؤيتها كلها . فإن التلسكوبات يرى بها إلى حد محدود ، ثم ينتهي الإدراك بها .
فمن أنكر السموات السبع على مقتضى الأحاديث لأن التلسكوب لم يرها فقد جعل هذه المقدمات ، وجهل ما عرف ، وأنكر ما اعترف به . أي إننا نقول : إن السموات السبع هي غير النجوم التي رآها الناس اليوم ، والتي عرفها الفلكيون إلى اليوم ، وهي سموات طباق

سبع ، بعيدة جداً في الفضاء الذي لا نهاية له ولا حد له باعتراف جميع الفلاسفة الحاضرين والماضين . فالإنسان إلى الآن لم ير هذه السموات ببصره المجرد ، ولا بآلاته المقرِّبة المعظِّمة , وليس له أن ينكر ما لم يره لأنه لم يره , وقد اعترف أن الفضاء لا نهاية له .

وأما قولهم : كيف يقطع هذه المسافات في ليلة واحدة . فنقول : هذا راجع إلى قدرة الله , وإلى الإيمان به . فالذي ينكر المعراج لذلك يكون منكراً الله ومنكراً قدرته . وهذا أحسن طريقة في إقناعه أن يقام له على الإله القادر الذي يفعل ما يشاء . فإذا عرف الله وقدرته سهل عليه الجواب عن هذا , وسهل عليه معرفته . أما أن نذهب لنقيم له الدليل على إمكان أن يقطع المسافات الطويلة في ليلة واحدة , وهو ينكر الله , وينكر قدرته فمما لا يجوز المنطق الذهاب إليه . وما يكون المعراج والإيمان به في جانب الله والإيمان به !! وأما إذا كان المعارض بهذه الحجة مؤمناً بالله , وبأنه خالق السموات والأرض والوجود كله ، وخالق المسافات والأبعاد والقوى فلن يصعب عليه الإيمان بأن يعرج برسوله إلى أبعد ما يريد ، ويرجعه في ليلة واحدة بلا عجز ولا تعب . وليس عروجه برسوله في ليلة واحدة بأشق على قدرة الله وأغرب فيها من خلقة الإنسان وما

أودع فيه . وليس أعجب من خلقه لعينه الباصرة التي يرى بها على حقارتها هذه المرئيات من الأجرام السماوية ، وبيننا وبينها مئات الملايين من الأميال في أقل من ثانية . وليس أعجب من أ خلق لنا من هذه النطفة البيضاء السائلة ومن الخبز الذي نأكله ، هذه العقول الجبارة ، والعلوم التي لا تنتهي ، والحواس العجيبة . ولكن الشيء إذا كثرت رؤيته نزعت منه العبرة .

ولو فرضنا أن الإنسان لم تخلق له حاسة البصر ، فحدث عنها وعن بلوغها المسافات الطويلة ، وإدراكها في أقل من ثانية ما لا ندركه آلاف الأعوام سيراً لعد هذا ضرباً من الخيال والوهم ، ولعده أغرب من المعراج وقصته . ولو أن إنساناً خلق طوراً واحداً كامل الخلق كما خلق جدنا آدم ، فرأى الناس الرجال البالغين الكاملين ، والنساء البارعات جمالا . اللاتي لا تشبع منها العين والبصر ، وحدث عن مبدأ هؤلاء ، وعن أصلهم ، وأنهم كانوا يوماً من الدهر نطفة من هذا الماء الدافق الأبيض المستقذر ، أو تراباً ، لما أمكن أن

يصدق ذلك . ولو قيل له هذا ، وقيل له : إن واحداً من هؤلاء الرجال الذين تراهم عرج به ليلة إلى هذه الشمس ، أو إلى أرفع منها ، ثم نزل إلى الأرض في ليلة لعد هذا أقرب من الأول ، ولآمن بهذا العروج قبل أن يؤمن بأصل الإنسان وبدايته إن أمكن أن يؤمن . ولو أن أعقل العقلاء لم ير الشمس ولا القمر ولا الأجرام العلوية ، ولم يبرز إلى السماء ، فقيل له : إن فوق هذا البيت الذي أنت فيه سرجاً عظيماً ، أكبر من الأرض أكثر من مليون مرة ، معلقة في الهواء ، لا يحملها شيء ولا تقع لعد هذا الكلام من الخرافات ، ولعد هذا أغرب من المعراج في القدرة والندرة ، ولكننا الآن نرى الشمس والقمر وسائر الأفلاك فوقنا في الهواء ، ولا غرابة ولا عبرة . ولو حدث عن الجاذبية التي يعتمد عليها المعطلة في تعطيلهم ، وحاولنا أن يؤمن بها كما هي لحاولنا شططا .

وفي كل شيء له آية — تدل على أنه القادر

على أن هذا الذي أنكروه لأنهم حسبوه بعيداً محالاً ، هم يشاهدون كل يوم مثله وأعجب . فإن بين الأرض والشمس مسافة ثلاثة وتسعين مليون ميل ، وهذه أنوارها تصل إلينا في أقل من لحظة . وإن النور يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلومتر .

-132-

وهذا النور الذي يقطع المسافات في هذه السرعة ، وقد حققوا أخيراً أنه مادة أي جوهر لا عرض . فإذا كان واهب الوجود وهب النور وهو جماد هذه السرعة والقوة ، فكيف يعجز أو يبخل أن يعطيها أفضل خلقه ؟! وإذا كان أعطاها هذا النور الحسي الذي يهدي الأبصار ، فكيف لا يعطيها ذلك البور ﷺ الذي يهدي البصائر ؟! وشتان ما بين النورين على أن ما أحدث التلغراف والراديو من نقل الأصوات والكلام يقرب لهؤلاء المعراج ، ويقطع عليهم التعلل بالمسافات والأبعاد .

وأخيراً فأغلب شبهات المعراج هي شبهات في الحقيقة على القدرة وهي لا تروج إلا عند من ينكر الإله القادر الفعال لما يشاء . وقد أصبح الإيمان اليوم بالقادر الفعال من الضرورات الأولية لا ينازع في ذلك إلا قوم يعشقون الإلحاد والكفر لذاتهما لأن أنفسهم تشتهيه ، لا لأن لديهم عليه براهين ومحاولتنا أن يؤمن هذا الصنف بالمعراج والإسراء وبالإله أيضاً عبث .

ولو أن إنساناً ـ وإن خلق غبياً ـ فكر في أحقر عضو فيه ، وفكر فيما أودع من الحكم والأحكام والأسرار فيه ، وكيف جاء وفق المصلحة والمنفعة والحكمة ، وكيف كان في هذا المكان من البدن ، وكيف كان بهذا القدر وهذا الشكل وبهذا اللون والسعة ـ وفكر بعد في أصله ومادته التي بريء منها , وكيف كان في تنقله من طور إلى طور ، ومن خلق إلى خلق ، ومكيف كان ينمو باتزان وتناسب في جميع أعضائه ، وجميع جوانبه ، وعلى قدر موزون ـ ثم فكر فيما خلق حوله ليحفظه من التلف والضياع والأضرار المحدقة بالإنسان ، وكيف بقى كذلك مرعياً محفوظاً يؤدي مهمته ووظيفته أحسن تأدية ـ وفكر بعد ذلك في الشأن الذي خلق لأجله ، وفي الغاية منه ـ ثم فكر لو أنه بعكس ما كان وكيف يكون حينئذٍ : أقول لو أن إنساناً ، وإن كبر نصيبه من الغباوة ولا بلادة فكر في ذلك سواء أكان جاهلا أم عالماً ، وسواء أكان فيلسوفاً أم أمياً ، لكفاه ذلك دليلاً على القادر المختار الذي لا يؤوده شيء ، ولا يغلبه شيء ، ولرأى ذلك أغرب من جميع الخوارق من معراج وإسراء وغير ذلك ـ ولكن كما قلنا إذا كثرت رؤية شيء نزعت منه العبرة ـ على أن ما أحدث في هذا العصر من المخترعات والمبتدعات كاد يمحو حروف المستحيل ومتصرفاته

من قائمة الموجودات ـ ولو أن ما اخترع في هذا العصر من البدع الصناعية الأوربية جاء في القرآن أو غيره من كتب الله لقال الجاهلون إن هذا مستحيل ، ولكذبوه أعظم من تكذيبهم للمعراج والإسراء ، ولبدأوا بإنكاره وجحوده ـ

ونحن كما قلنا لا نرى ما يراه بعض الناس في الرد على الجاحدين بأن نجتهد في أن نقيم لهم الدليل على أن الأمر الذي خالفونا فيه جار على نواميس الطبيعة وعاداتها ليس خارقاً ولا معجزاً ـ فهذا الرأي كما قلنا الإنتاج لا ينصر إيماناً ، ولا يكسر كفراناً ، والطريقة الجيدة في ذلك أن نقيم لهم الدليل قبل كل شيء على الإله الذي يقول للشيء كن فيكون ، الذي لا يغالب ولا يمانع ـ فإذا ما اعترفوا به لم يجدوا مـانعاً من أن يؤمنوا بالدين ، وما جاء به الدين من أمور تحار فيها العقول الجبارة ـ وإلا فإننا إذا ذهبنا وأقمنا لهم الدليل على أن هذا الأمر الذي جاء به الدين ، وجاء به الرسول ليس معجزاً بل هو أمر معتاد قد يكـون لغير الأنبياء ، فهل يكون ذلك برهاناً عندهم على الإيمان وعلى الرسالة ؟ اللهم لا ـ وبهذا فلتقاوم

كل شبهة تعترضك أيها القارئ دون الإيمان والاطمئنان بالدين ، وما أخبر به الدين . ولتعلم أن الأديان كلها مبنية على الخوارق والإيمان بالخوارق . فهي كلها تحدث الإنسان ـ أشرف المخلوقات ـ كان سلسلة خوارق وعجائب . فأوله خلقة آدم وحواء ، وهو خارق الناموس العام ، وآخره بعث الإنسان بعد الموت ، ثم خلوده في الجنة أو النار وبقاؤه كذلك لا يموت ولا يحي . وهذا كله خارق ونادر . فلا إيمان إلا بالإيمان بالخوارق ، وبأن الله يفعل ما يشاء ويختار . ومن العجب أن يكون للملوك ، ومن دون الملوك ، أحكام استثنائية وخوارق في أفعالهم ، ولا يكون ذلك لملك الملوك الله رب العالمين .

مخاطبة الأموات

روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ أمر بأربعة وعشرين صنديداً من صناديد قريش يوم بدر ، فقذفوا في طويٍ من أطواء بدر وقام على الطوى ، فجعل يناديهم

بأسمائهم وأسماء آبائهم " أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فانا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً " . فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما تكلم من أجساد لا أرواح لها . فقال رسول الله " والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع منهم لما أقول " .

يستدل فريق نشأ في حجر البدعة والخرافة بهذه القصة على بدعهم التي ابتدعوها ، وعلى لجوئهم إلى الموتى رغباً ورهباً وعلى سائر ما يأتونه عند القبور من محدثات ينبو عنها الذوق والعقل والدين . ويقولون : إذا كان رسول الله ﷺ دعا الموتى الكافرين فكيف لا ندعو الموتى المؤمنين ؟! وإذا كانوا يسمعون فمن يعارض في دعاء من يسمعون ؟! وقد يرشحون قولهم هذا بإحضار الأرواح ومخاطبتها . وعلى ذلك ارتكبوا ما ارتكبوا من هذه الخرافات لدى الأولياء وغير الأولياء من أبواب وجدر ، حتى ضج العقلاء والحريصون على الدين ، و على عقول الأمة وسمعتها من ذلك . وفعلوا ما فعلوا من أوهام سوداء سودت وجه الدين والمتدينين ، وجعلت للأعداء مقالا ومقدحاً في دين التوحيد ودين العقل والذوق . ولهذه البدع ـ كما يعلم المفكرون ـ أثر في إلحاد من يلحدون من شباب الإسلام ، أنفة منهم